المعلم يعقوب
بين الأسطورة و الحقيقة

الهيئة العامة لقصور الثقافة

ذاكرة الوطن

د. أحمد حسين الصاوي

رفع بعض الباحثين "المعلم" يعقوب إلى مصاف الأبطال الوطنيين، وفي هذا الكتاب "المعلم يعقوب بين الأسطورة والحقيقة" تختلف الصورة تمامًا.

يتناول الكتاب سيرة "الجنرال" يعقوب منذ نشأته، معتمدًا على عدد وفير من المراجع والوثائق ومركزًا على صلته بالحملة الفرنسية، حيث اختار منذ البداية لنفسه نهجًا واضحًا لم يحد عنه، إذ ربط نفسه بالحملة ومصالحها واختار أن يرحل مع قواتها بعد أن تهاوت أحلام قادتها ومُنيت مشروعاتها في استعمار مصر بالفشل.

الغلاف: د. خالد سرور



www.gocp.gov.eg
www.qatrelnada.com.eg
www.althaqafahalgadidah.com.eg

الثمن: جنيهان

سلسلة
ذاكرة الوطن

2

سلسلة تعنى بنشر كتب مختارة تعبر عن تاريخ مصر الثقافى والوجدانى

تصدرها
الهيئة العامة لقصور الثقافة

• المعلم يعقوب
بين الأسطورة والحقيقة
• د. احمد حسين الصاوى
الطبعة الثانية
الهيئة العامة لقصور الثقافة
القاهرة 2009م
144ص، 5,13 × 5,19 سم
• تصميم الغلاف: د. خالد سرور
• رقم الايداع: 7192/ 2009
• الترقيم الدولى: [illegible]
• المراسلات:
باسم / مدير التحرير
على العنوان التالى: 16 أ شارع امين
سامى قصر العينى
القاهرة - رقم بريدى 11561
ت: 27947891 (داخلى: 180)

• الطباعة والتنفيذ:
شركة الامل للطباعة والنشر
ت: 23904096

المعلم يعقوب
بين الأسطورة والحقيقة

د. أحمد حسين الصّاوى

وزارة الثقافة
الهيئة العامة لقصور الثقافة

تقديم

المعلم يعقوب

بين الأسطورة والحقيقة

رغم إجماع مؤرخي التاريخ المصري الحديث على "خيانته" لتعاونه مع المحتل، ورغم أن وثائق المحتل نفسه قد كشفت دوره في التآمر على المقاومة الشعبية خلال ثورتي القاهرة الأولى والثانية. إلا أن "المعلم يعقوب" قائد ما سمي بـ"الفيلق القبطي" التابع لجيش نابليون مازال محور جدل ونقاش . . . فالبعض حاول ويحاول أن يصوره للأجيال الجديدة كرائد للتنوير. وكثائر على الظلم العثماني والمملوكي، وأنه صاحب رؤية ونظرية ترى إمكانية التحالف مع الفرنسيين لإدخال الديمقراطية والعدالة في المجتمع العربي . . . ورفع الظلم عن كاهل الإنسان المصري !!! مع أن الحقيقة غير ذلك تماما، وفي محاولة لوضع الأمور في نصابها الحقيقي وإظهار الحقيقة حفاظا على ذاكرتنا من التشويش الذي تستهدفه جهات عديدة لأغراض ليست وطنية . . . نعيد نشر هذا الكتاب للعالم الراحل

الكبير د. أحمد حسين الصاوي . . والذي ألفه في منتصف الثمانينات للرد على تلك المقولات الزائفة خاصة أن الرجل اعتمد على كثير من الوثائق الإنجليزية والفرنسية التي كشفت دوره منذ ما قبل الاحتلال بل وتعاونه مع المماليك ضد أبناء جلدته المصريين من مسلمين وأقباط، موضحا موقف "الكنيسة المصرية" الوطني من الاحتلال الفرنسي، وموقفها منه شخصيا منذ تعاونه مع المماليك وحتى تعاونه مع الفرنسيين وخروجه معهم مهاجرا إلى فرنسا بطلب شخصي منه حتى لا يفتك به أبناء وطنه جزاء خيانته لهم.

ورغم أهمية كتاب الدكتور الصاوي إلا أنه لم يستطع أن ينشره بعد تأليفه، وطبع طبعة محدودة نفدت في حينها، وأصبح الحصول على نسخة منه أمرا مستحيلا، ولقد أعاد الراحل الكبير رجاء النقاش الاعتبار للكاتب وكتابه عندما اعتمد عليه في تفنيد رأي لويس عوض عن المعلم يعقوب . . ونتيجة لما كتبه رجاء النقاش عن كتاب الدكتور الصاوي بدأ المثقفون يبحثون عنه في المكتبات بلا جدوى. واقترحت على عمنا رجاء النقاش أن يعيد نشره في سلسلة "ذاكرة الكتابة" التي تصدر عن هيئة قصور الثقافة وكان يرأس تحريرها . . فقال لي ضاحكا - يرحمه الله - إنها في دائرة تخصص سلسلة "ذاكرة الوطن"، ومنذ هذه المكالمة وأنا أعتبر أن إعادة إصدار هذا الكتاب إحدى وصايا أستاذنا رجاء النقاش قبل رحيله مباشرة فضلا عن كونه إعادة اعتبار لأستاذ الأساتذة د. أحمد حسين الصاوي الذي لم يعد يذكره أحد . . رغم أنه رائد من رواد الإعلام

ومؤسس لأغلب أقسام الإعلام في الوطن العربي. فضلا عن دوره في التأريخ للطباعة والصحافة . .

وترجع أهمية كتاب الدكتور الصاوي "المعلم يعقوب بين الأسطورة والحقيقة" إلى أن الرجل أراد أن يقدم بشكل علمي الحقائق كما هي، وسعى لتمحيص الآراء المختلفة من خلال الوثائق والمراجع والشهادات وخرج بمجموعة من الحقائق الهامة التي أرى أن أهمها توضيح موقف الكنيسة القبطية المصري الوطني من الاحتلال الفرنسي، وأن تسمية جيش يعقوب باسم "الفيلق القبطي" كان الغرض منه إثارة الفتنة الطائفية في حين أن الكتاب يكشف لنا بالوثائق أن هذا الفيلق كان يضم مجرمين سابقين من المسلمين والمرتزقة من خارج البلاد من أرمن وأتراك، وأنه ضم على حد تعبير الجبرتي الذعر والحرافيش من المنسر إلى جانب شزاز النصارى الوافدين، ولفظ "النصارى" في الأدبيات التاريخية يعني "المسيحيين غير المصريين" فالمسيحيين المصريين كان يطلق عليهم مصطلح "الأقباط"، بل إن الدكتور الصاوي يكشف لنا في كتابه الهام عن دور "المعلم يعقوب" في العمل مع المماليك في جمع الضرائب والجزية من الفلاحين الأقباط في الصعيد، وغلظته وشراسته في التعامل مع الفلاحين المصريين سواء كانوا مسلمين أم أقباط، ولقد اعتمد الدكتور الصاوي على مرجع قبطي هام هو "تاريخ الأمة القبطية" ليعقوب نخلة روفيله الذي أفرد فصلا خاصا لعلاقة "المعلم يعقوب" بالمماليك ثم الفرنسيين، ولقد تفرد "روفيله" بخبر حرمان

الكنيسة للمعلم يعقوب من التناول لأنه خرج عن تعاليم الكنيسة، واتخذ له "جارية" غير زوجته تشبها بالمماليك . . . فضلا عن الشكاوي التي كانت ترد إلى الكنيسة من رعاياها الأقباط في الصعيد من سوء معاملته . . يتفرد أيضا "روفيله" بموقف الكنيسة الوطني الواضح منه بعد تشكيله للفيلق القبطي بأوامر من نابليون، واعتبار الكنيسة أن ذلك الموقف تعاون مع ممثل "الكاثوليكية" _ نابليون _ والذي ترى الكنيسة أنه خروج واضح عن تعاليمها.

الكتاب الذي بين أيدينا يناقش بشكل علمي يعتمد على الوثائق العربية والأجنبية ليحسم بشكل لا يقبل الجدل حقيقة "المعلم يعقوب" الذي يريد البعض الآن أن ينصبه "ثائرا وتنويريا" في محاولة لطمس الذاكرة الوطنية، وإشاعة مفاهيم غير وطنية منها أن التعاون مع العدو ممكنا بل إن "الخيانة" نفسها يمكن أن تكون وجهة نظر .

أسامة عفيفي

مقدمة

هذه دراسة لصفحة من تاريخ مصر ، نعرضها بكل موضوعية وبنظرة علمية مجردة تتخطى حدود أية حساسيات ، ونرجو أن يتقبلها القارىء برحابة صدر ودون ما حساسيات كذلك . فهدف الدراسة هو جلاء الحقيقة ، والحقيقة وحدها . ولا فرق أمام الحقيقة وأمام التاريخ بين مسلم ومسيحى .

لقد كانت الحملة الفرنسية على مصر غزواً له سماته المتميزة . وإذا كان الفرنسيون قد فشلوا فى امتلاك مصر أو فى إعادة تشكيل هيكلها السياسى والاجتماعى،فالذى لاشك فيه أن حكمهم لمصر ثلاث سنوات كان فى حد ذاته هزة عنيفة أحدثت نتائج بعيدة المدى قوية الأثر فى حياة مصر وبنيتها السياسية والاجتماعية . ولعل من أسوأ نتائج هذه الحملة ما أوشكت أن تحدثه من شروخ فى بنية الأمة ووحدتها .

فتحتْ مصر بعد الحملة صفحة جديدة فى تاريخها واستأنفت مسيرتها بما وعته من دروس ، أمة واحدة . وبنى الشعب المصرى بمسلميه وأقباطه دولته الحديثة . ونحن أبناء هذا العصر نفخر جميعا ونعتز بأبطالنا وأفذاذنا من هؤلاء وأولئك ، الذين أسهموا بكل إخلاص وتجرد

فى بناء الوطن والعمل على استقلاله ورفعته وتقدمه ، وبالقدر نفسه نلفظ منهم كل من انحرف عن الطريق أو أساء إلى قومه وبلاده .

د/أحمد حسين الصاوى

تمهيد

المعلم يعقوب أو الجنرال يعقوب ... شخصية مصرية تصلح لبناء قصة درامية مثيرة . كتب عنه عدد من المؤرخين ، ولكنهم على قلتهم اختلفوا فيه أيما اختلاف : منهم من هاجمه بعنف وضراوة واعتبره خائنا لقومه وبلاده ، مثل مؤرخنا عبد الرحمن الجبرتى . ومنهم من اكتفى بأن سجل نشأته وسرد مختلف مراحل حياته ، وإن لم يخل ذلك من محاولة تصويره فى صورة زعيم مرموق من زعماء طائفته ، مثل بعض مؤرخى الأقباط . ومنهم كذلك من وقف موقف المؤرخ المدقق فناقش فى اجتهاد ملحوظ بعض الوثائق التى نسبت إلى يعقوب من الأمور الخطيرة فى آخر أيام حياته، مالم يعرف عنه فى حينه ، مثل أستاذنا شفيق غربال . ثم جاء أخيرا من مضى خطوة أبعد ، فرفع يعقوب إلى مصاف الأبطال الوطنيين مثل الدكتور لويس عوض .

إن اختلاف الرأى التاريخى حول شخصية عامة لهو من الأمور الشائعة التى ألفناها ، سواء فيما يتصل بشخصيات تاريخنا أو تاريخ غيرنا . فكيف نكتنه الحقيقة ؟ إن واجب المؤرخ الصادق بعد أن يلمس مدى تفرق السبل بمن سبقه من المؤرخين فى هذا الصدد ، وتفاوت

أحكامهم بين الأبيض الناصع والأسود القاتم عبر مختلف درجات الرمادية ، واجبه أن يكون حكما عدلا ، فيبحث ويناقش ويحلل ويستنتج بعقل متجرد ومنطق واضح ومنهج سليم . وليس هذا بالأمر الهين وإنما هو مهمة ثقيلة محفوفة بالمحاذير حافلة بالمشقة،فضلا عما تتسم به أحيانا من حساسيات . وسوف أحاول فى هذه الدراسة بمناقشة كل ما كتب عن الجنرال يعقوب ، وما أمكن العثور عليه من وثائق تتصل بحياته ، وباستقراء الظروف والملابسات التى نشأ وعاش فى ظلها والأحداث التى تفاعل معها ، أن أستخلص ملامح صورته الحقيقة دون ما مبالغة أو تضخيم ، ودون ما « رتوش » أو ظلال . وهو قبل كل شىء مواطن مصرى برز على مسرح الأحداث خلال فترة بالغة الأهمية فى تاريخ مصر الحديث . ولا يكاد الجيل الحالى من المواطنين يعلم عنه شيئا . والقلة القليلة التى تعلم تختلف أو تتخبط فى الحكم عليه ، تبعا لما تأثرت به من كتابات تتراوح بين ذروة الإشادة وحضيض التجريح .

أقباط مصر

كان أقباط مصر إبان العصر العثمانى يمثلون أقلية متميزة تعيش فى نطاق أوضاع وتقاليد شكلية خاصة مثل التزيى بزى معين ، أو اتخاذ لون معين للعمامة . وقد رسخت هذه الشكليات عبر القرون منذ أصبحت مصر قطرا إسلاميا ، وتأكدت بعد أن صارت مصر ولاية عثمانية تخضع روحيا وزمنيا لسلطان خليفة المسلمين فى استانبول ، ويحكم استقرارها نظام فريد يقوم على لون من توازن القوى بين الوالى والمماليك وقوات الجيش العثمانى (الأنكشارية) .

ولم يكن فرض تقاليد معينة أو أوضاع خاصة على أقلية من الأقليات — دون ما دخول فى التفصيلات — بدعا أو أمرا غير مألوف فى تلك الأيام . فقد كان ذلك سمة من سمات مختلف الأنظمة التى حكمت مجتمعات العصور الوسطى شرقا وغربا ، فى ديار الإسلام وفى غير ديار الإسلام . وقد اتسع نطاق تلك الأوضاع والتقاليد ليضم مع الأقباط نصارى الشام والأروام (اليونانيين) بجامع المسيحية فى كل .

ولم تعش طائفة الأقباط بطبيعة الحال منعزلة أو مقطوعة الصلة بسائر طوائف المجتمع المصرى وطبقاته . فبغض النظر عن تلك الأوضاع

والتقاليد الخاصة التى أملتها الاعتبارات « الإسلامية » و « العثمانية » ، فقد عاش الأقباط أفرادا وجماعات جنبا إلى جنب مع مواطنيهم المسلمين فى وئام ، يمارسون مثلهم شتى الأنشطة من زراعة وتجارة وحرف مختلفة ويشاركونهم عديدا من المناسبات الاجتماعية وبخاصة تلك المتوارثة من قبل دخول المسيحية والإسلام إلى مصر ، متمثلة فى الأعياد والاحتفالات المصرية الأصيلة كوفاء النيل وشم النسيم . بل بلغ الأمر فى هذا الصدد أن اختلطت أحيانا بعض المناسبات فارتدت ثيابا إسلامية مسيحية مشتركة فوق ثيابها المصرية القديمة ، وشارك فيها الجميع فى حماس وشعور عميق بالانتماء إلى تراث مشترك .

ومن الامانة التاريخية هنا أن نشير إلى أن هذا التعايش السلمى عميق الجذور تعرض أحيانا قليلة إلى بعض الشروخ السطحية ، نتيجة احتكاكات طفيفة أملاها الجهل والتعصب . وهى حالات نادرة محدودة النطاق ، ولايمكن أن تقاس إلى مثيلاتها فى أوربا أو آسيا فى تلك الأيام .

وبالاضافة إلى ذلك فقد توارث الأقباط حرفا ومهنا معينة حذقوها وبرعوا فيها وتعمقوا أسرارها ، وأصبحت حكرا لهم ووقفا عليهم ، لم يحاول مواطنوهم المسلمون أن يشاركوهم إياها ولا أن ينافسوهم فى مجالاتها . وكان على رأس ما حذقه الأقباط وبرعوا فيه مهنة الصيرفة وما يتصل بها من حساب الأموال عداً وجباية وتحويلاً وخصماً وإضافة ... الخ . ومن ثم اعتمد عليهم الأفراد والجماعات فى عمليات الصيرفة والحساب اعتمادا تاما . فلكل تاجر أو مملوك أو ناظر وقف « محاسب » قبطى « يمسك دفاتر » الدخل والمنصرف ويحسب الحق والمستحق . وقبل هؤلاء كان المسئولون من « الكشاف » و « المحتسبين » و « الملتزمين » يعهدون إلى المحاسبين الأقباط بهذه الأعمال فيما يتصل بالأموال العامة للولاية . وكانت علاقة هؤلاء المحاسبين بمن يعملون لهم هى الأخرى علاقة حميمة تحكمها المصلحة المتبادلة أولا ،

وكان من المنطقى كذلك أن يرحب الفرنسيون بتعاطف الأقباط معهم ، وبخاصة بعد أن لمسوا عدم ترحيب سائر المصريين بهم أو تصديقهم لما أذاعوه من ادعاءات . فأخذوا منذ استقر الأمر لهم فى القاهرة يستعينون بالأقباط لتيسير مهمة قواتهم الزاحفة لإتمام احتلال البلاد ، ولمساعدة الجهاز الإدارى على تدبير شئون الحملة وتحقيق الاستقرار لنظام الحكم والمحكومين على السواء .

وكان من المنطقى أيضا أن يغتر هؤلاء الأقباط ومن ظاهرهم فى موقفهم من نصارى الشام والأروام بما حققوا من مكانة لدى الحاكم الجديد ، فيحاولوا أن ينزعوا عنهم ثوب المهانة الاجتماعية ، فيتحللوا من تلك القيود الشكلية التى فرضت عليهم قرونا ، ويبالغوا فى ذلك أحيانا بما يؤذى مشاعر المسلمين . ويسرد الجبرتى من حوادث شهر شعبان سنة ١٢١٣ (عقب دخول الفرنسيين) « ... ومنها ترفع أسافل النصارى من القبط والشوام والأروام واليهود وركوبهم الخيل وتقلدهم بالسيوف بسبب خدمتهم للفرنسيس ومشيهم الخيلاء وتجاهرهم بفاحش القول واستذلالهم المسلمين ، كل ذلك بما كسبت أيديهم ... » [1]

ولكن يبدو أن الأمر فى هذا الصدد قد جاوز حدوده المعقولة ، ففى شهر رمضان التالى ، وهو شهر له مكانته الخاصة فى نفوس المسلمين ، حال الفرنسيون دون تدهور العلاقات بين الفريقين بمنع الطوائف المسيحية من تحدى مشاعر المسلمين . ويقول الجبرتى « ثم إن نصارى الشوام رجعوا إلى عادتهم القديمة فى لبس العمائم السود والزرق وتركوا لبس العمائم البيض والشيلان الكشميرى الملونة والمشجرات ، وذلك بمنع الفرنسيس لهم من ذلك . ونبهوا أيضا بالمناداة فى أول رمضان بأن نصارى البلد يمشون على عادتهم مع المسلمين أولا ، ولا يتجاهرون بالأكل والشرب فى الأسواق ولا يشربون الدخان ولا شيئا من ذلك بمرأى منهم ، كل ذلك للاستجلاب لخواطر الرعية » [2] .

وإن كانت لا تفتقر إلى الوئام .

وقد جنى المحاسبون الأقباط من مهنتهم أموالا طائلة، وبخاصة من كان منهم يعمل مع كبار « المموّلين » أصحاب الإقطاعيات الشاسعة والثروات الضخمة والخيرات الوفيرة التى تتيح أوسع الفرص للكسب المشروع وغير المشروع .

وتضخمت ثروات بعض الأقباط فصاروا من كبار الأغنياء المعروفين الذين يكونون مع غيرهم من أغنياء التجار والعلماء ومن إليهم طبقة اجتماعية واحدة ، لها امتيازاتها ومصالحها ولها نمط حياتها الخاص . فشيدوا مثل غيرهم من الأغنياء أفخم الدور والقصور ، وفرشوها بكل غالٍ وثمين ، وملكوا العبيد والجوارى ، وأحاطوا أنفسهم بالخدم والحشم والحراس وبكل مظاهر الحياة الرغدة المترفة الناعمة .

وبينما كانت القاعدة العريضة من الطائفة القبطية تتعايش مع القاعدة العريضة من المسلمين تعايشا سلميا كاملا فى قرى مصر ومدنها ، كان متنوِّرو الطائفة وأغنياؤها أكثر إحساسا أو حساسية بتفردهم أو اغترابهم من حيث هم أقلية مسيحية صغيرة تعيش وسط مجتمع إسلامى كبير ، وتحكمها قيود وأوضاع اجتماعية خاصة .

الفروسية مع من عمل فى خدمتهم من المماليك ، وساعده على ذلك ما اشتهر عنه من نزوع إلى القتال والنزال . وقد حارب يعقوب بالفعل فى صف المماليك ضد قوات القبطان حسن باشا التى نزلت إلى مصر لتثبيت الحكم العثمانى قبل قدوم الحملة الفرنسية بفترة قصيرة (شكل ١)

ويقول من أرخوا ليعقوب من أبناء طائفته « إن معاصريه منهم أحسوا باختلافه عنهم ، وأثبتوا عليه شذوذه عن مألوفهم »[٢] . وقد تبدى ذلك فى بعض مظاهر حياته ، فقد خالف أبناء قومه فى الزى والحركات ، كما اتخذ له امرأة من غير جنسه بطريقة غير شرعية (كانت سورية من حلب) . ولم يكن رجال الدين راضين عن غروره وخروج تصرفاته معهم ومع الكنيسة عما تنبغى مراعاته من الأصول والتقاليد . وقد نصحه بطريرك الأقباط نفسه عدة مرات بالعدول عن خطته وبأن يعيش كسائر إخوانه ، ولكنه رفض النصيحة .

هذا هو « المعلم يعقوب » الذى كان فى الثالثة والخمسين من عمره عندما غزت الحملة الفرنسية مصر بقيادة الجنرال بونابرت . وقد بلغ شأوا بعيدا فى قومه ، فكان من كبار الأثرياء ومن زعماء الطائفة المبرزين فى مجتمع القاهرة وأقاليم الصعيد على السواء .

فكيف بدأت حركة التعاون بين القبط والفرنسيس ، وكيف تطورت ؟

يقول جورج ريجو (G. Rigault) فى كتابه « الجنرال عبد الله منو » أنه كان على بونابرت وهو يرأس جهاز الحكم فى مصر أن يضمن الوجود المادى للجيش الفرنسى . ولكن بما أن الأقدار قد ألقت به إلى بلد غير متحضر ، فلم تكن لديه أية وسيلة يستطيع بها أن يعرف حصيلة الإيرادات أو ينظم جباية الضرائب . ولكن كان أمامه الأقباط . فمن قبل الحملة كان المماليك دائما يعهدون إلى هؤلاء المسيحيين

وينبغى أن نلاحظ أن استعانة الفرنسيين بالأقباط فى الأمور المالية بالذات كانت ضرورة حتمتها خبرة هؤلاء الطويلة السابقة ، واحتكارهم لكل المعلومات المتعلقة بهذا الشأن . أى أن إرادة الطرفين التقت عند غاية واحدة هى التعاون بينهما لما فيه مصلحة النظام الجديد .

وقد دعم من هذا التقارب أن الحملة الفرنسية ، شأنها شأن سائر حملات الغزو الاستعمارى وموجاته قديما وحديثا وبالرغم مما رفعته من شعارات وما أذاعته من تمويهات ، وجدت فى سياسة التفريق بين الطوائف واحتضان الأقليات ما يعينها على تثبيت أقدامها وتحقيق أهدافها .

ولكن المستعمر من ناحية أخرى قد يغرى بالتعاون معه أحيانا بعض ضعاف النفوس أو ضعاف الانتماء من غير أبناء الأقليات ، ممن لا يبغون سوى تحقيق مصالحهم المادية القريبة . وسواء أكانت المبادرة من جانب المستعمر أم من جانب أولئك الوصوليين الانتهازيين فالنتيجة واحدة . وعلى ذلك فلم يكن نصارى مصر وحدهم هم الذين ابتغوا الأمن والجاه والمنعة فى كنف الفرنسيين ، وإنما شاركهم فى هذا الاتجاه بصورة ما من بقى فى مصر من المماليك (المسلمين) وعلى رأسهم مراد بك . لقد ظل مراد ورجاله مثلا يناوشون القوات الفرنسية فى الصعيد حتى آثروا فى عهد كليبر حقن الدماء والتعاون مع الغزاة مقابل الإبقاء على مغانمهم وإرضاء جشعهم واستمتاعهم بممارسة قدر من السلطان يواصلون به ما اعتادوا عليه من التحكم فى رقاب العباد . وكذلك فعل مماليك آخرون ممن شايعوا مراد بك فى الصعيد وغير الصعيد من أراضى مصر . كما جهر بتعاونه نفر من قدامى موظفى الحكم العثمانى .

ديسيه . وقد هنأه القائد الفرنسى على حسن بلائه وقدم إليه سيفا تذكاريا نقشت عليه « معركة عين القوصية – ٢٤ ديسمبر ١٧٩٨ » .

وفى هذا الوقت كانت حدة القتال فى الصعيد قد هدأت ، وساعدت الطبيعة الجغرافية للصعيد من احتمى به من المماليك على أن يجدوا ملاذا آمنا فى كفوره ونجوعه القابعة فى بطون الجبل ، كما عاق ضيق الوادى المطرد نحو الجنوب أى تقدم فعال للقوات الفرنسية الزاحفة التى اكتفت بإقامة نقاط عسكرية فيما احتلت من أقاليم . ومن ثم طالت حملة الصعيد أكثر مما كان متوقعا .

شكل رقم (١)



في عهد كليبر

غادر بونابرت مصر فجأة (فى أول أغسطس ١٧٩٩) عائدا إلى فرنسا ، وخلفه فى القيادة الجنرال كليبر (Kléber) الذى كان يضيق ببقاء الفرنسيين فى مصر ويتطلع للعودة بجيش الشرق إلى بلاده ، بعد أن تيقن من فشل الحملة فى تحقيق أغراضها . ومن ثم رحب بالتفاوض مع العثمانيين والإنجليز تمهيدا للجلاء عن مصر ، وإن لم يقدر لهذا الجلاء أن يتحقق فى عهده .

وعاد ديسيه من الصعيد ليكون إلى جوار قائده فى ظروفه غير المواتية . وكان ثانى اثنين مثَّلا كليبر فى مفاوضات الصلح مع الجانب العثمانى الإنجليزى فى ديسمبر عام ١٧٩٩ . ولم تلبث اتفاقية العريش التى أبرمت بين الجانبين فى أول عام ١٨٠٠ أن نقضت ، ونشب القتال بين الفرنسيين والعثمانيين ، وقد انتصرت فيه قوات الحملة بقيادة كليبر انتصارا حاسما (موقعة عين شمس – مارس ١٨٠٠) .

ولكى يحقن كليبر دماء جنوده بعد أن كان العثمانيون قد تغلغلوا فى البلاد وأثاروا الجماهير ضد الفرنسيين إثر نقض اتفاقية العريش ، وقع مع مراد بك اتفاقية « سلام وتحالف » (Paix et alliance) وكانت

المماليك والعثمانيين "وأعانوهم بالمال واللوازم" مداراة لهم وفداء لأرواحهم وعطفا على حركتهم ، فإن يعقوب "كرنك فى داره بالدرب الواسع جهة الرويعى ، واستعد استعدادا كبيرا بالسلاح والعسكر المحاربين وتحصن بقلعته التى كان شيدها بعد الواقعة الأولى (أى ثورة القاهرة الأولى أيام بونابرت) ، فكان معظم حرب حسن بك الجداوى (من زعماء المماليك) معه [٦]".

ويعترف مؤرخو الأقباط بأن يعقوب ومن تحصن معه من أخلاط القبط والشوام والأروام وبعض الفرنسيين قد حارب قوات العثمانيين والمماليك بعد نقض معاهدة العريش . ولنقرأ ما كتبه أحدهم (رؤوف حبيب) نقلا عن عدة مصادر « وكادت نار تلك الثورة أن تلفح القبط بشواظها لولا أن تدارك المعلم يعقوب الأمر بشجاعته المعهودة وحسن دفاعه ، فأظهر فى تلك الظروف العصيبة مقدرة منقطعة النظير واستهدف لخطر داهم ، وظل رابط الجأش على عسكره وهو يبث فيهم روح الحماس بعباراته النارية وجرأته الرائعة ، وثبت إلى النهاية أمام حصار عنيف وخصم عنيد لدود حتى تم له النصر » [٧] .

أخمد كليبر ثورة القاهرة مستخدما أبشع أنواع القهر والقمع والإرهاب . ثم فرض على المصريين كثيرا من المغارم عقابا لهم على الثورة . ونظرا لموقف المعلم يعقوب المتميز فى أثناء الثورة ، بالإضافة إلى ما ظهر من مواهبه من قبل ، فإن كليبر على حد قول الجبرتى « وكَّل يعقوب القبطى يفعل فى المسلمين ما يشاء » . وبفصل القول فى ذلك فيذكر « إنهم (أى الفرنسيين) وكَّلوا بالفردة العامة وجمع المال يعقوب القبطى وتكفل بذلك وعمل الديوان (أى أقام مكتبا) لذلك ببيت البارودى » [٨] .

كان طبيعيا بعد فشل ثورة القاهرة الثانية أن يزيد زهو الأقباط وخيلاؤهم ، وبخاصة من عمل منهم فى خدمة الفرنسيين ، وأن يشايعهم

فى ذلك غيرهم من نصارى الشام ومن إليهم ، وأن يسوء سلوك هؤلاء وأولئك فى معاملة المسلمين إلى أقصى حد . ونستطيع أن نتبين قتامة الصورة من عبارات الجبرتى التى وصف بها هذه الحالة والتى تقطر مرارة وسخطا . فهو يقول مثلا « تطاولت النصارى من القبط والشوام على المسلمين بالسب والضرب ونالوا منهم أغراضهم وأظهروا حقدهم ولم يبقوا للصلح مكانا وصرحوا بانقضاء ملة المسلمين وأيام الموحدين .. »[9] . ويشير الجبرتى إلى تعسف السلطات الفرنسية فى تحصيل المغارم التى فرضتها على المصريين ، من أموال وغلال وماشية وغيرها ، فيقول « وكل ذلك بإرشاد القبطة وطوائف البلاد (يقصد الأقليات المسيحية الأخرى) لأنهم هم الذين تقلدوا المناصب الجليلة وتقاسموا الأقاليم والتزموا لهم (أى الفرنسيين) بجمع المال . ونزل كل كبير منهم إلى إقليم وأقام بسرة الإقليم مثل الأمير الكبير ومعه عدة من العساكر الفرنساوية وهو فى أبهة عظيمة وصحبته الكتبة والصيارف والاتباع ... والخدم والفراشون ... وتقاد بين يديه الجنائب والبغال والرهوانات .. والقواسة والمقدمون وبأيديهم الحراب المفضضة والمذهبة ... ويرسل إلى ولايات الأقاليم من جهته المستوفين (أى المحصلين) من القبط أيضا ... ومعهم العسكر من الفرنساوية .. والصرافين والمقدمين ... فينزلون على البلاد والقرى ويطلبون المال والكلف الشاقة بالعسف ويؤجلونهم بالساعات فإن مضت ولم يوفوهم المطلوب حل بهم ما حل من الحرق والنهب والسلب والسب ، وخصوصا إذا فر مشايخ البلدة من خوفهم وعدم مقدرتهم ، وإلا قبضوا عليهم وضربوهم وسحبوهم معهم فى الحبال وأذاقوهم أنواع النكال »[10] .

أما يعقوب فقد تعاظم نفوذه وعلت مراتبه ، وبلغ فى علاقته بالفرنسيين شأوا بعيدا . صحيح أنه لم ينس أن يجمع لنفسه عندما جمع

للفرنسيين ، كما يقول أستاذنا شفيق غربال ،[11] وصحيح أنه ازدهى بنفسه وركبته الخيلاء ، ولكنه انفرد دون بنى قومه بما نسج حول اسمه تلك الأسطورة الدرامية التى اختلفت فيها الآراء .

لقد منحه كليبر رتبة « كولونيل » وجعله على رأس فرقة عسكرية من شباب القبط . فما هى قصة تلك الفرقة أو « الفيلق » كما عرفه المؤرخون ؟

يقول مؤرخو الأقباط (نقلا عن جاستون حمصى)[12] إن المبادرة جاءت من جانب المعلم يعقوب الذى « فكر فى تأليف فرقة قبطية » . وفاتح الفرنسيين فى ذلك فوافقوا . ويقولون إنه بعد أن جمع يعقوب شباب هذه الفرقة وكل كليبر أمر تدريبهم إلى ضباط فرنسيين . ويزيدون على ذلك أن يعقوب هو الذى جهز هذا الفيلق بالسلاح والميرة على نفقته الخاصة .

ويجارى الأستاذ شفيق غربال كذلك جاستون حمصى فيذكر أن يعقوب « **نظم جيشا** من الأقباط يخدم فى صفوف الفرنسيين ، وكان هذا التنظيم على نفقته الخاصة »[13] ، وأن كليبر « **أذن** بإنشاء القوة القبطية » . ويؤثر الدكتور لويس عوض ألا يرجح أن يكون يعقوب هو الذى أنشأ الفرقة القبطية ، فيقول إن كليبر عين يعقوب « قائدا للفيلق القبطى **الذى شُكّل فى مصر** ليعاون الفرنسيين فى حربهم ضد المماليك والأتراك »[14] .

غير أن معاصرى الحملة من المؤرخين يذهبون مذهبا آخر . فيقول ريجو (نقلا عن بعض وثائق الحملة ومعاصريها) إنه بعد انتصار كليبر على الأتراك فى موقعة عين شمس « كان لديه ١٥ ألف ضابط وجندى على استعداد لخوض معركة أخرى فورا ... وكان كليبر **يتأهب لكى يضم اليهم قوات إضافية : فرقة من الأقباط وأخرى من اليونانيين** »[15] .

ويؤيد الجبرتى ذلك بالضبط فى حديثه عن حوادث تلك الأيام نفسها (المحرم ١٢١٥ هـ : مايو - يونيو ١٨٠٠) « **طلبوا عسكرا من القبط** فجمعوا منهم طائفة وزيوهم بزيهم وقيدوا بهم من يعلمهم كيفية حربهم ويدربهم على ذلك وأرسلوا إلى الصعيد فجمعوا من شبابهم نحو الألفين وأحضروهم إلى مصر (أى القاهرة) وأضافوهم إلى العسكر »[١٦] .

وكذلك ذكر الجنرال رينييه (Reynier) ، وهو أحد قواد الحملة المارزين ، أن كليبر بعد نقض اتفاقية العريش كون فرقة من اليونانيين (الأروام) بلغ عدد أفرادها ١٥٠٠ جندى (أى ما يقرب من عدد جنود الفيلق القبطى) . وسجل معاصرو كليبر أيضا أنه فى صبيحة يوم مصرعه ذهب إلى جزيرة الروضة لكى يتفقد القوات اليونانية[١٧] .

ومما يؤكد أن تجنيد أبناء طوائف الأقليات المختلفة فى مصر كان سياسة فرنسية بحتة ما حدث عندما بدأت المناوشات بين الفرنسيين والعثمانيين عقب صلح العريش مما انتهى بنقضه . وقد ذكر الجبرتى من ذلك أن العثمانيين أرسلوا بعد الصلح بعض المراكب إلى « ثغر اسكندرية » لاستئناف العلاقات التجارية مع مصر فى حراسة بعض السفن الحربية . ولكن الفرنسيين « استولوا على الجميع وأخذوا مدافعهم وسلاحهم وحبسوا القباطين وأعيان التجار **وأخذوا الملاحين والمتسببين من البحرية والنصارى الاروام وهم عدة وافرة وأعطوهم سلاحا وزيوهم بزيهم وأضافوهم إلى عسكرهم** وأرسلوهم الى مصر (أى القاهرة) » . بل ان بونابرت نفسه عندما قاد حملته على مصر كان فى جعبته مشروع لتجنيد عشرين ألف رجل من أقليات الولايات العثمانية التى يفتحها .

ومن هنا فالأقرب إلى المنطق أن تكوين فرقة عسكرية من شباب الأقباط كان من خطط المستعمرين الفرنسيين وأن يعقوب كان أداتهم

المنفذة فى ذلك . ولكن هذا لا ينفى أن خطة الفرنسيين كان لها فى نفس يعقوب صدى طيب ، وأنها وجدت منه تجاوبا متحمسا . فنحن لا ننسى له سابقة اهتمام بالأمور القتالية منذ صباه وميله الشخصى إلى الفروسية والنزال . ونحن نذكر له ما اصطنعه فى مقر إقامته بالقاهرة من وسائل التحصين إبان ثورة القاهرة الأولى ، ثم اشتراكه فى الحرب مع قوات ديسيه التى كان يصحبها فى زحفها بالصعيد ، وكذلك ما اتخذه من إجراءات وما كان له من إسهامات فى أيام ثورة القاهرة الثانية . أى أن الفرنسيين بخطتهم الاستعمارية ويعقوب بأحلامه وتطلعاته التقيا على إرادة واحدة تجسدت فى إنجاز واحد ، هو تكوين الفيلق القبطى .

وعلى ذلك فمن المبالغة أن نفترض أن يعقوب هو الذى فكر وحده فى إنشاء الفيلق القبطى ، ثم نجعل من ذلك الفرض مسلمة نبنى عليها موقفا ليعقوب لاسند له من دليل ، فنقول كما قال الأستاذ شفيق غربال « إن من أسباب تأييد يعقوب للحكم الفرنسى أنه أتاح له إنشاء قوة حربية مصرية مدربة على النظم العسكرية الغربية ، وإن وجود الفرقة القبطية أول شرط أساسى يمكن رجلا من أفراد الأمة المصرية ... من أن يكون له أثر فى أحوال هذه الأمة (أى يتزعم حركة استقلالها) إذا تركها الفرنسيون وعادت للعثمانيين والمماليك يتنازعونها ويعيثون فيها فسادا » . ومن الغريب أن يذهب مؤرخ عظيم كشفيق غربال فى التصور إلى ماهو أبعد من هذا ، فيعقد مقارنة بين يعقوب وعمر مكرم قائلا إن يعقوب كان « يرمى إلى الاعتماد على القوة المدربة والسيد عمر يعتمد على الهياج الشعبى الذى تسهل إثارته ، والذى قد يصل سريعا لتحقيق أغراض حاسمة ولكنه لا يصلح قاعدة للعمل السياسى الدائم المثمر .. هذا الفرق بين الأداه التى اختارها يعقوب وتلك التى اختارها السيد عمر ، ليس فى الواقع إلا مظهرا لفروق أعمق . إذ ماحاجة ... نقيب الأشراف إلى جيش ، والرجل لا يتصور مصر إلا خاضعة لحكم المماليك تحت سيادة السلطان .... أما يعقوب فله شأن آخر ، إذ أنه

لا يريد عودة المماليك والعثمانيين وإنما يعمل على أن تكون لفئة من المصريين يد فى تقرير مصير البلاد ... أراد يعقوب أن يكون الأمر غير ذلك ، وعول على أن تكون القوة الحربية المصرية الجديدة مدربة على النظم الغربية ، فكان سباقا إلى تفهم الدرس الذى ألقاه انتصار الفرنسيين على المماليك . أو قل إلى إدراك ما أدركه محمد على بعد قليل من أن سر انتصار الغربيين فى جودة نظمهم وبخاصة نظمهم العسكرية ... » [١٨] .

استقر يعقوب فى القاهرة على رأس الفيلق القبطى . ويبدو أنه كان هذا الموقف الغريب والمضى فى تأييد المستعمر وخططه إلى هذا المدى أسوأ الأثر فى نفوس المصريين . ولعل فى عبارة مؤرخنا الجبرتى التى سجل بها هذا الحدث ، وما تحفل به من امتعاض ومرارة ، ما يعكس مشاعر الناس إزاءه . قال الجبرتى من حوادث عام ١٢١٥ — « إن يعقوب القبطى لما تظاهر مع الفرنساوية وجعلوه سارى عسكر القبطة (أى قائدا لهم) جمع شبان القبط وحلق لحاهم وزياهم بزى مشابه لعسكر الفرنساوية مميزين عنهم بقُبع يلبسونه على رؤُسهم مشابه لشكل البرنيطة وعليها قطعة فرو سوداء من جلد الغنم فى غاية البشاعة مع ما يضاف إليها من قبح صورهم ، وسواد أجسامهم وزفارة أبدانهم وصيّرهم عسكره وعزوته ، وجمعهم من أقصى الصعيد وهدم الأماكن المجاورة لحارة النصارى التى هو ساكن بها خلف الجامع الأحمر ، وبنى له قلعة وسوّرها بسور عظيم وأبراج وباب كبير يحيط به بدنات عظام .

وكذلك بنى أبراجا فى ظاهر الحارة جهة بركة الأزبكية . وفى جميع السور المحيط والأبراج طيقانا للمدافع وبنادق الرصاص على هيئة سور مصر (أى القاهرة) الذى رمّه الفرنساوية . ورتب على باب القلعة الخارج والداخل عدة من العسكر الملازمين للوقوف ليلا ونهارا وبأيديهم البنادق على طريقة الفرنساوية [١٩] » . وهكذا أرضى يعقوب فى نفسه

أحلام الفارس القديم : فرقة من الجند وقلعة محصنة وحرس خاص ورسوم وشارات ولقب عسكرى .

فى عهد منو

لم ينعم كليبر طويلا بانتصاره على العثمانيين وبنجاحه فى إخماد ثورة القاهرة الثانية وفى تحقيق الاستقرار بالصعيد . فمالبث أن لقى مصرعه على يد سليمان الحلبى فى ١٤ يونيو ١٨٠٠ . تكهرب الجو فى القاهرة والأقاليم مرة أخرى ، وتولى قيادة الحملة جاك منو (Menou) وبدأ التاريخ يخط أولى سطور الفصل الختامى فى حياة الحملة الفرنسية وجيش الشرق . ومما يلفت النظر فى هذه المناسبة ويوضح وثيق الصلة بين الفرنسيين والطوائف المسيحية فى مصر أن جنازة قائدهم المقتول لم يشترك فيها من المصريين غير ممثلى هذه الطوائف . ولنقرأ ماقاله شاهد العيان المؤرخ عبد الرحمن الجبرتى من وصف هذه الجنازة : « ولما فرغوا من ذلك (أى من محاكمة سليمان الحلبى وزملائه) اشتغلوا بأمر سارى عسكرهم المقتول ، وذلك بعد موته بثلاثة أيام كما ذكر ، ونصبوا مكانه عبد الله جاك منو ، ونادوا بالكنس والرش (استعدادا للجنازة) فلما أصبحوا اجتمع عسكرهم وأكابرهم **وطائفة عينها القبط والشوام** (أى يمثلونهم) وخرجوا بموكب مشهده ركبانا ومشاة وقد وضعوه فى صندوق من رصاص ... »

استمر يعقوب فى عهد منو يؤدى مهمته فى خدمة السلطات

الفرنسية ، ويتفانى هو وأعوانه فى أداء هذا العمل على حساب أمن المصريين وسلامتهم وحرياتهم وكرامتهم وحرمة بيوتهم وأموالهم . واستقراء الوقائع فى هذا الصدد وإنعام النظر فى ملابساتها وردود فعلها يبين أن موقف هؤلاء « المتعاونين » كان نابعا من أكثر من مجرد الشعور بالتعصب الطائفى . لقد غلبت عليهم الانتهازية الجشعة والأثرة العمياء التى تجرد النفوس من المشاعر الإنسانية الطيبة ، واستغلال الظروف غير الطبيعية التى دفعت بهم ، وهم فئة قليلة مستضعفة من الناس، فجأة الى مكان الصدارة والنفوذ والمنعة ، بعد أن عانوا طويلا "من امتهان لا يرفعهم من حضيضه ما ملكوه من مال وجاه ، ولا يفارقهم مهما زادت حاجة الحكام اليهم"، كما يقول شفيق غربال [٢٠] .

ويحدثنا الجبرتى عن كثير مما شاهده فى تلك الأيام العصيبة فيقول « اشتد أمر المطالبة بالمال وعين لذلك رجل نصرانى قبطى يسمى شكر الله ... فنزل بالناس منه مالا يوصف .. فكان يدخل إلى دار أى شخص لطلب المال وصحبته العسكر من الفرنساوية والفعلة وبأيديهم القزم فيأمرهم بهدم الدار إن لم يدفعوا له المقرر وقت تاريخه من غير تأخير إلى غير ذلك ، وخصوصا ما فعله ببولاق فإنه كان يحبس الرجال مع النساء .... وينوع عليهم العذاب [٢١] .

ويروى الجبرتى كذلك فى حديثه عن مشاركة يعقوب ورجاله فى تحصين القاهرة فى وجه العثمانيين عندما اقتربوا منها للمرة الثانية (من حوادث شهر المحرم ١٢١٦ : مايو ١٨٠١) أنه « .... توكل رجل قبطى يقال له عبد الله من طرف يعقوب بجمع طائفة من الناس لعمل المتاريس فتعدى على بعض الأعيان وأنزلهم من على دوابهم وعسف وضرب بعض الناس على وجهه حتى أسال دمه فتشكى الناس من ذلك القبطى .... » . ويبدو أن تجاوزات أعوان يعقوب بلغت من التطرف حدا جعل السلطات الفرنسية نفسها تتدخل لوقفها . فعندما أنهى الناس

شكواهم إلى « بليار » (Belliard) قائمقام (أى نائب) منو أمر بالقبض على ذلك القبطى « وحبسه بالقلعة ... » [٢٢] .

وكان من أعوان يعقوب فى قهر المصريين بعض المسلمين . فيذكر الجبرتى من حوادث ١٨ ربيع الثانى ١٢١٦ (أول سبتمبر ١٨٠١) أن السلطات العثمانية التى كانت احتلت القاهرة بعد أن انسحب منو إلى الاسكندرية قد اعتقلت « مصطفى الطارانى » وحصّلت منه « خمسة عشر ألف ريال .... ومصطفى هذا كان كلارجيا (أى أمين مخزن الأغذية) عند قائد أغا (أى رئيس الأنكشارية) . فلما خرج الأمراء (أى المماليك بعد دخول الفرنسيين) تقيد مقدما عند بونابرته ثم عند كليبر . فلما وقعت الفتنة السابقة وظهر يعقوب القبطى وتولى أمر الفردة وجمع المال تقيد بخدمته وتولى أمر اعتقال المسلمين وحبسهم وعقوبتهم وضربهم ، فكان يجلس على الكرسى وقت القائلة (الظهيرة) ويأمر أعوانه بإحضار أفراد المحبوسين من التجار وأولاد الناس فيمثل بين يديه ويطالبه بإحضار ما فرض عليه مما لا طاقة له به ولا قدرة له على تحصيله فيعتذر بخلو يده ويترجى إمهاله فيزجره ويسبه ويأمر بضربه .... ويرده إلى السجن بعد أن يأمر أعوانه أن يذهب إلى داره وصحبته الجماعة من عسكر الفرنسيس ويهجمون على حريمه ... » [٢٣] . وقد تم إعدام مصطفى هذا فى ميدان باب الشعرية بعد ذلك بأقل من شهرين .

هذا وقد كافأ منو المعلم (الكولونيل) يعقوب على خدماته المخلصة للفرنسيين ، وبخاصة فى تلك الأيام المضطربة الحافلة بالأحداث بمنحه رتبة « جنرال » ، وكان ذلك فى مارس ١٨٠١ .

قصيدة غير عصماء

غير أن يعقوب أصيب فى عهد منو بصدمة عاطفية هزت أعماقه ، فقد بلغه — متأخرا — خبر مصرع صديقه وحبيبه الوسيم الجنرال ديسيه . كان ديسيه قد غادر مصر فى عهد كليبر بدعوة من بونابرت لينضم اليه فى حربه مع النمسويين ، فقتل فى معركة مارنجو (Marengo) الشهيرة التى دارت عند إحدى القرى الإيطالية يوم ١٤ يونيو عام ١٨٠٠ ، وهو نفسه يوم مصرع كليبر . ويقول جاستون حمصى إن المعلم يعقوب حزن لوفاة صديقه ديسيه — وكان فى الثانية والثلاثين — حزنا شديدا وكتب إلى الجنرال منو يعرض عليه دفع ثلث تكاليف بناء النصب المزمع إقامته لتخليد ذكرى « الرجل الذى وهبه قلبه » . وكانت سلطات الحملة قد فتحت اكتتابا لإقامة هذا النصب بين جنودها [٢٤] .

وأراد يعقوب كذلك أن يعبر للمسئولين الفرنسيين عن حزنه بطريقة مبتكرة ، وذلك بأن يرسل مرثية شعرية إلى حكومة باريس ! فكلف صديقه الأب روفائيل أن ينظم له قصيدة بما أراد ، فنظمها هذا فى خمسة وثلاثين بيتا ، وأرسلها يعقوب بالفعل إلى فرنسا . ولابد لنا هنا من

وقفة متأنية نتأمل فيها هذا العمل ودلالاته . ولكن ينبغى قبل التعرض لمضمون هذه القصيدة وبنائها أن يتعرف معنا القارىء على ناظمها ، فمن هو روفائيل ؟

الأب روفائيل أو رفاييل (١٧٥٨ - ١٨٣١) اسمه الأصلى أنطون زخورة راهبة ، وهو من أسرة سورية معروفة تنتمى إلى طائفة الروم الكاثوليك . ولد فى مصر وفيها تعلم ثم أكمل تعليمه الدينى فى إيطاليا وأتقن عدة لغات وتنقل بين مصر وسوريا وإيطاليا حيث عمل بالترجمة ، ثم استقر فى مصر حتى وصلت الحملة الفرنسية فالتحق بالعمل فيها مترجما ، وكان الشرقى الوحيد الذى عينه الفرنسيون عضوا بالمجمع العلمى (فى لجنة الفنون والآداب) . وهناك أسهم فى إعداد البحوث وترجمة الوثائق التى ساعدت علماء المجمع فى إعداد كتاب « وصف مصر ».وتولى روفائيل كذلك مهمة الترجمة الفورية فى كثير من جلسات ديوان القاهرة ، كما ترجم عددا من المراسيم والمنشورات والمطبوعات التى أصدرتها الحملة ، ومنها محاضر محاكمة سليمان الحلبى قاتل كليبر ، وكتيب عن مرض الجدرى أصدره « ديجنت » (Désgenettes) كبير أطباء الحملة . وقد ارتحل روفائيل بعد الحملة إلى فرنسا حيث عمل بمدرسة اللغات الشرقية بباريس ، ثم عاد الى مصر فى عهد محمد على وعمل بالترجمة لحكومته ، كما أسهم فى إنشاء مطبعة بولاق ، وترجم من الإيطالية كتاب « الأمير » لمكيافيللى الذى كان أول ما أخرجته مطبعة بولاق من كتب .

وإلى جانب الإشارات القليلة المتناثرة عن روفائيل فى مراجع الحملة وعهد محمد على ، وفى كتاب الجبرتى ، فقد أحطنا بتفصيلات حياته من بعض مقالات كتبها بالعربية والفرنسية اثنان من أبناء قومه هما الخورى قسطنطين الباشا ، وشارل بشاتلى ، ومنهما وحدهما عرفنا أن روفائيل حاول قرض الشعر إلى جانب عمله فى الترجمة ، وأنه هو الذى نظم

قصيدة يعقوب . ولكنهما اكتفيا بالاشارة إلى ذلك دون أن ينشرا بيتا واحدا منها . وقد عثرنا على النسخة الأصلية للقصيدة التى بعث بها يعقوب ومعها ترجمتها الفرنسية فى بعض محفوظات وزارة الحربية بباريس . ومن فحص خطوط القصيدة وإنعام النظر فى مبناها ومعناها نستطيع أن نخرج ببعض الدلالات المهمة عن ناظمها ومرسلها .

القصيدة مقدمة على شكل لوحة جميلة ، فهى على ورق جيد شبه صقيل يمتاز عن الورق المعتاد فى ذلك العهد.وقد استخدم كاتبها وواضح أنه خطاط محترف — خط النسخ الجميل فى كتابة النص ، مع بعض عبارات فى المقدمة بخط الثلث . ورأس هذه اللوحة مزين بالزخارف الدقيقة الملونة والمذهبة ، وكذلك استخدمت الوحدات الزخرفية الملونة فى الفصل بين أشطر الأبيات.ويعلو اللوحة تكوين زخرفى تليه عبارة « إنا لله وإنا إليه راجعون » ، وهى كما نعلم جزء من الآية القرآنية « الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون » .

وتلى ذلك مقدمة نثرية مسجوعة تقول بما يشبه أن يكون أسلوبا إسلاميا تقليديا « الحمد لله محرك آلات الألسن الأوانس ، بأنغام اللغات الدوامس ، وكاشف الغطاء الدلامس ، عن الآثار الدوارس . نحمده حمدا وشكرا لائقا بإله مبدع وخالق ، بارى المبروّات والخلائق ، مكون الأرض والسموات ، يصور الأحياء والأموات ، مميز النفائس من الخسائس ، فلا إله غيره ، ولاخير إلا خيره ، وهو المالك والسايس ، آمين » . وواضح من هذه المقدمة افتعال صاحبها فى استخدام الألفاظ التى تناسب سجعه حتى ولو لم تناسب المعنى ، وغموض بعض العبارات وركاكتها ، والخطأ فى اشتقاق بعض الألفاظ .

ثم يمهد الكاتب لأبيات القصيدة بهذا المدخل الذى يقول بالنص : « وبعد ، فهذا دعاء جليل سديد ، به ننتحب وفات عزيزه ، الجنرال

داسه ، صاحب الأمير يعقوب ، سارى عسكر القبط الجديد ، فيقول » . ولايخفى على القارىء ما يتضمنه هذا التمهيد على قصره من أخطاء فى تقسيم العبارات وإرجاع الضمائر ، بل وهجاء الألفاظ (شكل ٣) .

أما أبيات القصيدة التى لم تنشر من قبل ، والتى لا تخلو من طرافة ، فهذه مختارات منها بنصها :

أذرفنا على ذكر الحبيب دموعا
سكرنا بها ليوم البعث والحشر
حبيب وقد ذاع صيته أبدا
بطل وقد عرف فى سائر القطر
فتلألأت شجاعته وعقله ثم فطنته
وشرح احتقاره الدنيا بالنظم والنسر
وقد فاز بها على المماليك إجمالا
ظافرا بأرقابهم نصرا بالعز والقهر
وأخضع تشامخ جماعة البربر
مروضا أخلاق أهل اقليمنا المصر

○ ○ ○

فآها على ناصرى داسه ووا اسفى
على اصطحابى به لو قدر القدر
فكنت أرغب وجودى بميدانى مارنجوا
كما رافقته قبلا بصعيدنا المصرى
فموتى عنه فداء كان يغنيه
عن فقد حياة مفيدة ذكرها دهر

ولم يزل بفكرى مخلدا أبدا
حتى إلى خروج الروح من صدرى

○ ○ ○

جد على بلحظ العين مترأفا
وانظر الى بأسنى برقة النظر
فانظر إلى شعبنا وشقاء حالته
فغدت حياتنا لا تخلوا من الكدر
لاحظ المصريين وكيف كانوا قديما
وعبيدا غدوا الآن للرق واليسر

○ ○ ○

ومحبتنا للفرنسيس فلابد عنها
لأنهم اعتقونا من الأضرار والشر

ومن حيث الشكل فان هذه الابيات المتهالكة البناء الواهية التركيب الحافلة بأخطاء النحو والصرف والهجاء قبل أخطاء العروض ، تدل على أن ناظمها لم يكن يحظى بأية موهبة شعرية ، وأن محاولته قرض الشعر باءت بالفشل الذريع، كما تدل على أن لغته العربية نفسها كانت ضعيفة متهافتة ، الأمر الذى تؤكده ترجماته فى المنشورات وغيرها من وثائق الحملة ، ثم فى كتاب مكيافيللى الذى ترجمه لمحمد على والذى قال عنه جاك تاجر انه « حرص فيه على حفظ المعانى ولو انه استعمل العبارات الركيكة التى كان استعمالها شائعا فى هذه الفترة » [٢٥] .

أما مضمون الأبيات وهو الذى أوحى به يعقوب لناظمها ، فإنه يحوى عددا من المعانى ذات الدلالات المهمة على أفكار يعقوب وموقفه من الحملة ، والمعانى التى تتصل بعلاقته الخاصة بصديقه الذى يرثيه . إننا نستطيع بالرغم من العيوب اللغوية والشعرية للقصيدة أن نستخلص منها ما يلى :

ــ يشيد المعلم يعقوب ببطولة ديسيه « فاتح بلادنا بناحية قبلي » ويصفه بأنه صنديد مجاهد شجاع عاقل فطن .

ــ يذكر بالشماتة انتصار ديسيه على المماليك وإذلاله للهمج « أخضع تشامخ جماعة البربر » وكلمة « بربر » (Berber) هنا تعنى الهمج ، وهى لاشك من أثر معرفة روفائيل للفرنسية . ولعل يعقوب يقصد بها سكان الصعيد بعامة الذين قاوموا زحف ديسيه ، أو لعله على أحسن الفروض يقصد جماعات البدو الذين انضموا إلى قوات المماليك فى مقاومة الغزو الفرنسى . ويتكرر ذكر البربر فى القصيدة ويوصفون بأنهم « أعداء الله والبشر » .

ــ يقول إن المصريين كانوا قديما شعبا عظيما ، ثم غدوا (تحت الحكم الإسلامى بالطبع) عبيدا للرق والأسر ، وأن الفرنسيين هم الذين خلصوهم من الذل والعبودية .

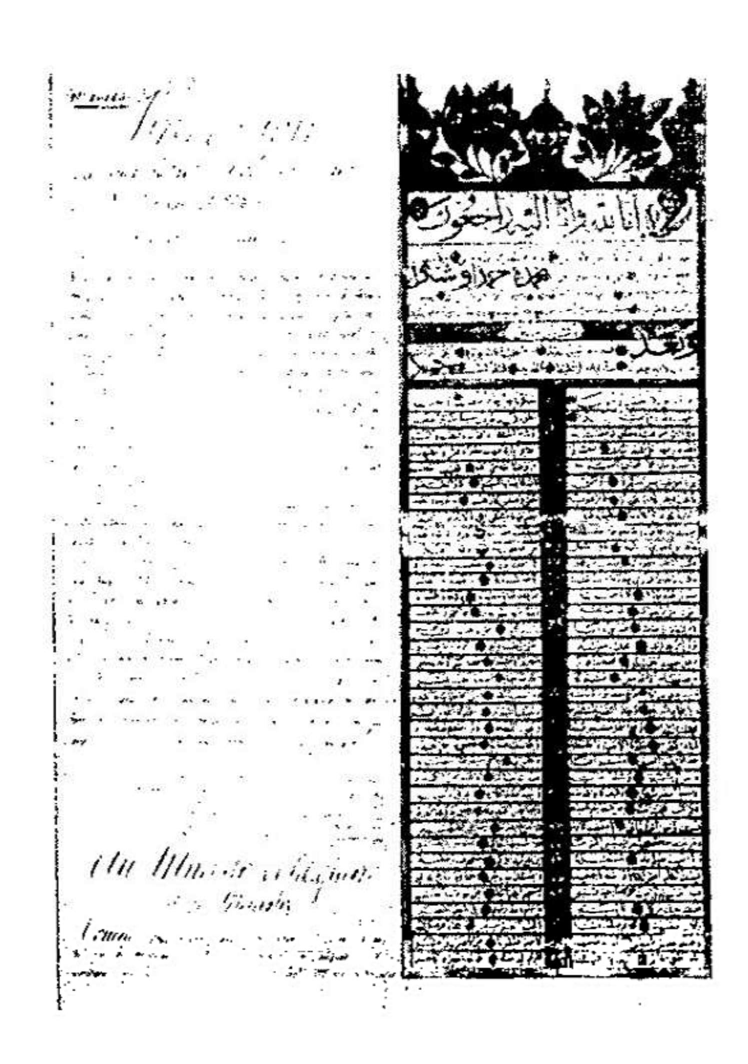
ــ يصور سوء حال المصريين بعد رحيل ديسيه . ويخاطب الفرنسيين فى شخص صديقه الراحل معربا عن خشيته من أن تعود مصر إلى سابق عهدها من الذل والقهر إذا ما تم الصلح (وكان وقتئذ متوقعا) وأخلاها الفرنسيون . ويناشدهم ألا يدعوا مصر « لسابق القهر » وألا يتركوها لحاكم « يسوس بالقسر » .

ــ لم ينس يعقوب كذلك أن يجامل بونابرت فيشيد بانتصاراته « وماخصه الله من العظمات والقدر » .

ــ يؤكد أكثر من مرة حب قومه للفرنسيين « لأنهم اعتقونا من الأضرار والشر » .

أما على المستوى الشخصى فهناك ملمح لا تخطئه العين فى أبيات هذه القصيدة . إننا نستطيع أن نستشف مما تتضمنه من عواطف مسرفة أن العلاقة بين يعقوب وصاحبه كانت شيئا أكبر من مجرد الصداقة أو الولاء . إن حزن يعقوب على ديسيه يكاد يكون حزن عاشق ولهان ،

شكل (٣) رثاء يعقوب للجنرال ديسيه (الشعر للأب رفائيل)



فهو يكرر فى ذكره كلمة الحب ومشتقاتها ، وهو يتمنى أن لو كان قد مات فداء له (فى معركة مارنجو) ويؤكد أن فقيده لم يزل بفكره "مخلدا أبدا حتى الى خروج الروح" من صدره . ثم هو يناجيه بقوله « جد على بلحظ العين » ، ويناشده أن يرأف به وان يمنحه نظرة تضيء كسنا البرق . ويصور انتقاله الى الملكوت الاعلى تصويرا رومانسيا . يذكر فيه "جمال نفسه" والنور الذى يحيط بروحه ويضىء على العالم كالقمر ، « متزينا ببهاء أشعة الحب للبشر » .

من الواضح إذن أن العلاقة التى كانت تربط يعقوب بديسيه علاقة حميمة جدا . فقد صحبه صحبة كاملة طيلة أكثر من عام حتى تعلق به تعلقا شديدا كما يقول مؤرخه جاستون حمصى . ويروى الجنرال بليار فى مذكراته ، وكان من ضباط ديسيه فى حملة الصعيد ، الكثير عن الأمسيات الطويلة التى كان يرتبها ديسيه فى منزله بأسيوط ويحضرها يعقوب مع ضباط الحملة ، وكذلك الأمسيات الباذخة التى كان يرتبها يعقوب فى منزله لديسيه وضباطه . وكانت السهرات تمتد فى هذه الأمسيات وتلك ، والأحاديث تدور حول شتى الموضوعات (٢٦) .

ومهما يكن من أمر فلا نستطيع أن نؤثّم هذه العلاقة الشخصية أو أن نجزم بشيء عن مدى ما وصلت إليه بين الرجلين . كل ما يمكن قوله فى هذا الصدد أنها حفرت فى نفس يعقوب خطا عميقا . وكتاب الجبرتى على أية حال حفل بذكر علاقات حميمة كثيرة قامت بين بعض المصريين وبعض الفرنسيين أيام الحملة ، وفى مقدمتها ما ذكره عن علاقة صديقه الأديب المعروف الشيخ اسماعيل الخشاب بشاب من ضباط الجيش الفرنسى .

نهاية الحملة .. والرحيل

اقتربت أيام الحملة من نهايتها ، وتهاوت أحلام منو الاستعمارية فى أن يجعل من مصر ، لا مجرد قطر احتله الفرنسيون بالغزو ، وإنما قطرا تم ضمه الى فرنسا (Pays annexé) ، هذا بالرغم من تظاهره باعتناق الإسلام الذى لم يستطع أن يقنع به أحدا من المصريين . وذلك كما تهاوت من قبل أحلام بونابرت فى أن يؤسس فى هذا الجزء من العالم ملكا جديدا يقوم على أسس تمزج بين الحضارة الإسلامية ومبادىء الثورة الفرنسية ... الخ . وغادر منو القاهرة الى جبهة الاسكندرية ، بينما بقى نائبه (قائمقامه) بليار يدافع عن العاصمة ، ويحاول جهده أن يحفظ ماء وجه الحملة ، قبل الجلاء الذى لم يعد منه مفر ، الى آخر قطرة .

واصل الجيش العثمانى زحفه نحو القاهرة ، وواصل الجيش الإنجليزى كذلك زحفه من رشيد ، تاركا منو محاصرا فى الاسكندرية . وزاد من تحرج موقف الفرنسيين انتشار الطاعون وفتكه بعدد كبير من الأهالى والجنود . ومن ثم قرر بليار مع سائر قواده عدم انتظار تعليمات منو ، والمضى فى مفاوضة العثمانيين والإنجليز فورا لعقد اتفاق على أساس الجلاء الكامل عن مصر . وهكذا وقع بليار اتفاقية لم تختلف موادها كثيرا عن

مواد اتفاقية العريش التى وقعت من قبل فى عهد كليبر ثم نقضت . وكان ذلك فى أواخر يونيو ١٨٠١ .

ولم يعلم منو بتوقيع نائبه بليار لهذه الاتفاقية إلا مؤخرا . وقد ثار عندما اطلع على شروطها ، ولكنه لم يلبث أن وقع هو نفسه فى آخر أغسطس اتفاقية مماثلة للجلاء عن الاسكندرية .

وقد تضمنت اتفاقية بليار للجلاء مادتين تهمان سكان القاهرة بوجه خاص ، هما المادتان الثانية عشرة والثالثة عشرة ، فرأى بليار إذاعتهما وحدهما فى منشور خاص بالعربية والفرنسية موجه منه الى « جميع أهالى محروسة مصر (أى القاهرة) وقدم بليار لنص هاتين المادتين بعبارة قال فيها إن إرادة الله تعالى قضت « بالصلح ما بين عساكر الفرنساوية وعساكر الإنجليز وعساكر العثمالية .. » ثم استدرك يطمئن الاهالى الى أن هذا الصلح لايعنى المساس بأشخاصهم أو عقائدهم أو أملاكهم . وأكد لهم أن « رءوس عساكر الثلاثة جيوش قد أشرطوا بهذا » . أما نص المادتين فهو كما جاء بالمنشور :

الشرط الثانى عشر : كل واحد من أهالى مصر المحروسة من كل ملة كانت الذى يريد يسافر مع الفرنساوية يكون مطلوق الإرادة وبعد سفره كامل ما تبقى أعياله ومصالحه لم أحدا يعارضهم (فى النص الفرنسى : لا تصادر ممتلكاتهم) .

الشرط الثالث عشر : لا أحدا من أهالى مصر المحروسة من كل ملة كانت لا يكون قلقا من قبل نفسه ولا من قبل متاعه ، جميع الذين كانوا بخدمة الجمهور الفرنسى بمدة إقامة الجمهور بمصر . ولكن الواجب يطيعون الشريعة (فى النص الفرنسى قوانين البلاد) .

وختم بليار هذا المنشور بعبارة وجهها إلى « أهالى مصر وأقاليمها جميع الملل » قال فيها إن الفرنسيين لم يكفوا حتى اللحظة الأخيرة عن العمل

على راحة الاهالى وأمنهم ، وعلى ذلك « فيلزم أنتم ايضا تسلكوا فى الطريق المستقيمة وتفتكروا ان الله تعالى جل جلاله هو الذى يفعل كل شىء والسلام » . وبناء على ذلك فقد أمن على نفسه وماله وعياله كل من تعاون مع الفرنسيين فى أثناء الاحتلال ، واستعد من يريد السفر منهم مع الحملة المنسحبة إلى فرنسا وفى مقدمة هؤلاء وأولئك المعلم يعقوب (شكل ٤) .

بعد أيام قليلة من صدور هذا المنشور أرسل ابراهيم بك الذى كان يصحب القوات العثمانية الزاحفة إلى القاهرة « أمانا لأكابر القبط فخرجوا ... وسلموا ورجعوا الى دورهم » . أما يعقوب الذى كان يشترك بفيلقه فى حماية ظهر قوات بليار بالقاهرة ، فانه خرج بمتاعه .. وعدى الى الروضة وكذلك جمع اليه عسكر القبط وهرب الكثير منهم واختفى ، واجتمعت نساؤهم وأهلهم وذهبوا الى قائمقام (بليار) وبكوا وولولوا وترجوه فى إبقائهم عند عيالهم وأولادهم فإنهم فقراء وأصحاب صنائع ما بين نجار وبناء وصانع وغير ذلك . فوعدهم أنه يرسل الى يعقوب أنه لا يقهر (أى لا يرغم) من لا يريد الذهاب والسفر معه [٢٧] .

واستطرد الجبرتى إلى ذكر الآخرين الذين فضلوا الهجرة مع الفرنسيين فقال « خرج المسافرون مع الفرنساوية الى الروضة والجيزة بمتاعهم وحريمهم وهم جماعة كثيرة من القبط وتجار الافرنج والمترجمين وبعض مسلمين ممن تداخل معهم وخاف على نفسه بالتخلف ، وكثير من نصارى الشوام والاروام مثل يني وبرطلمين (بارتلمى الذى كانت العامة تطلق عليه فرط الرمان) ويوسف الحموى وعبد العال الأغا أيضا الذى طلق زوجته وباع متاعه وفراشه وما ثقل عليه حمله » . وكان عبد العال هذا أغا الانكشارية ، أى قائدهم ، وقد أذاق القاهريين الكثير من بطشه وجبروته . وبعد نحو شهر من خروج هؤلاء المهاجرين من

القاهرة كتب الجبرتى يقول إنه « حضرت جماعة من عسكر القبط الذين كانوا ذهبوا بصحبة الفرنساوية فتخلفوا عنهم ورجعوا الى مصر (القاهرة) » [٢٨] .

ومؤدى كلام الجبرتى فى الفقرات السابقة أن معظم عسكر الفيلق القبطى رفضوا السفر مع يعقوب إلى فرنسا ، وأن ذويهم أقاموا مناحة أمام نائب القائد العام حتى لا يرغم أحد من أبنائهم على السفر مع قائدهم السابق ، وأن من كانوا قد صحبوا العسكر المنسحبين (ربما لتأمين الطريق) قد عادوا بإرادتهم إلى العاصمة مرة أخرى .

ولا شك أنه مما ساعد على اطمئنان أبناء الأقليات ، وبخاصة الأقباط ، إلى البقاء فى « مصر المحروسة » مفضلين ذلك على مخاطر السفر إلى المجهول صحبة يعقوب ومن معه حرص السلطات العثمانية التى دخلت القاهرة على تكرار المناداة بالأمان وتأكيد القول بالفعل ، فى محاولة دائبة لاكتساب تأييد ساكنى مصر جميعا ، والحيلولة دون حدوث أية اضطرابات طائفية تخل بالأمن ، مما أشاع جوا من التسامح والتجاوز عن الماضى والشعور بضرورة بدء صفحة جديدة فى العلاقات بين مختلف طوائف السكان . فبعد أقل من شهر من توقيع اتفاقية الجلاء عن القاهرة « نودى بأن لا أحد يتعرض بالأذية لنصرانى ولا يهودى سواء كان قبطيا أو روميا أو شاميا ، فإنهم من رعايا السلطان والماضى لا يعاد ..... » [٢٩] .

ولم يقتصر الأمر على القاهرة بل امتدت هذه الحملة الدعائية الى الأقاليم ، مع التماس العذر لمن تعاون مع الفرنسيين . ويقول الجبرتى : « كتبت فرمانات (أى منشورات) وأرسلت إلى بلاد الشرقية والمنوفية والغربية مضمونها الكف عن أذية النصارى واليهود وأهل الذمة وعدم التعرض لهم وفى ضمنها آيات قرآنية وأحاديث نبوية والاعتذار عنهم بأن الحامل لهم على تداخلهم مع الفرنساوية صيانة أعراضهم وأموالهم » [٣٠] .

شكل (٤) اتفاقية الجلاء عن مصر

LE GENERAL DE DIVISION

BELLIARD,

Commandant le Kaire et les Troupes de l'Arrondissement,

Aux Habitans du Kaire, de toutes les Religions.

من حضرة المكرم الجنرال بلـيار قيمقام مصر حالا وسارى عساكر الفرقة
خطابا الى جميع اهالى محروسة مصر

ثم انه اراد الله تعالى بالصلح بين عساكر الفرنساوية وعساكر الانكليز وعساكر العثمالية ولكن مع هذا الصلح انفسكم واديانكم ومتاعكم لم احدا يعارضهم ودوس عساكر الثلاثة جيوش قبلوا التزلموا بهذا كما تروه فى الشرط الثانى عشر والثالث عشر

الشرط الثانى عشر

كل واحد من اهالى مصر المحروسة من كل ملة كانت الذى يريد يسافر مع الفرنساوية يكون مطلوق الارادة وبعد سفره كامل ما تبقى اعياله ومصالحه لم احدا يعارضهم

الشرط الثالث عشر

لاحدا من اهالى مصر المحروسة من كل ملة كانت لا يكون قلقا من قبل نفسه ولا من قبل متاعه جميع الذين كانوا يصحبه الجمهور الفرنساوى بمدة اقامته الجمهور بمصر ولكن الواجب يطيعون الشريعة

ثم يا اهالى مصر واقاليمها جميع الملل انتم تنظرون لحد اخر درجة الجمهور الفرنساوى ناظر لكم ولراحتكم فيلزم انتم ايضا تسلكوا فى الطريق المستقيمة وتتفكروا ان الله تعالى جل جلاله هو الذى يعمل كل شى والمتكلم .

حرر فى ٠٠ من سنة ....

مضى

الجنرال بلـيار قيمقام مصر حالا .

PAR la volonté de Dieu tout puissant, la paix vient de se conclure entre les armées française, anglaise et ottomane ; mais par cet arrangement vos personnes, vos religions, et vos propriétés ne cesseront d'être respectées - les trois puissances en prennent l'engagement formel, comme vous pouvez en juger par les deux articles du traité de paix transcrits ci-après :

ART. XII.

« Tout habitant de l'Egypte, de quelque » nation qu'il soit, qui voudra suivre l'armée » française, sera libre de le faire, sans qu'après » son départ sa famille soit inquiétée, ni ses » biens confisqués. »

ART. XIII.

« Aucun habitant de l'Egypte, de quelque » religion qu'il soit, ne pourra être inquiété » ni dans sa personne, ni dans ses biens, pour » les liaisons qu'il aurait eues avec les Fran- » çais pendant leur occupation de l'Egypte, » pourvu qu'ils se conforment aux loix du » pays. »

Habitans du Kaire et de l'Egypte, de toutes les religions, vous voyez que jusqu'au dernier moment les Français n'ont cessé de veiller à votre repos et à votre sûreté : montrez-vous dignes de tout ce que nous avons fait pour vous, en ne vous écartant pas de la bonne voie ; songez toujours que Dieu est puissant, que c'est lui qui dirige toutes choses.

Le Général de Division,

Signé BELLIARD.

A LA CITADELLE DU KAIRE, DE L'IMPRIMERIE NATIONALE.

وأكثر من هذا فان العثمانيين بعد استعادتهم مصر من أيدى الفرنسيين حرصوا على ان يستعينوا بكتبة الأقباط وصيارفهم فى تحصيل الضرائب المستحقة للحكومة كما كان الحال قبل الاحتلال الفرنسى ، وأن يعلنوا ذلك على الملأ حتى تعود الأمور إلى مجاريها بين كل الأطراف . ففى شهر جمادى الأولى ١٢١٦ (سبتمبر ١٨٠١) « قرئت فرمانات (أى منشورات) صحبة عثمان كتخدا (نائب الوالى العثمانى) وفيها التنويه بذكر أعيان الكتبة الأقباط والوصية بهم مثل جرجس الجوهرى وواصف وملطى ، ومقدمهم فى تحرير الأموال الميرية ... » [٣١] .

* * *

كانت السفن الإنجليزية بقيادة الأدميرال اللورد كيث (Keith) ترسو قرب شاطىء رشيد لتقل قوات حامية القاهرة بقيادة بليار ومن شاء أن يسافر معها إلى فرنسا ، بينما كان منو بقواته ما زال بمنطقة الاسكندرية .

ووصل بليار ورجاله المنسحبون من القاهرة إلى رشيد فى أواخر يوليو ١٨٠١ ، ومعهم يعقوب ومن صحبه من المصريين والمتمصرين . ورافق يعقوب من أسرته والدته وزوجته وابنته وأخوه حنين وابن أخته غبريال سيد اروس . وهناك وجد بليار رسالة من القبطان العثمانى حسن باشا يطلب إليه فيها أن يقنع المعلم يعقوب بالبقاء فى مصر لكى تنتفع السلطات العثمانية التى استردت مصر بخدماته المالية ، كما انتفعت بخدمات بنى قومه من كبار الكتبة والصيارف . ولكن يعقوب لم يستجب لهذا الطلب رغم إلحاح القبطان وإغرائه له بالبقاء ، ورغم محاولة بليار لإقناعه . ولعله خشى من مؤامرة عثمانية (غير مستبعدة) على حياته ، جزاء موقفه وتصرفاته فى أثناء الاحتلال الفرنسى للبلاد .

ركب يعقوب ومن معه الفرقاطة پالاس (Pallas) ، وهى السفينة

وأكثر من هذا فان العثمانيين بعد استعادتهم مصر من أيدى الفرنسيين حرصوا على ان يستعينوا بكتبة الأقباط وصيارفهم فى تحصيل الضرائب المستحقة للحكومة كما كان الحال قبل الاحتلال الفرنسى ، وأن يعلنوا ذلك على الملأ حتى تعود الأمور إلى مجاريها بين كل الأطراف . ففى شهر جمادى الأولى ١٢١٦ (سبتمبر ١٨٠١) « قرئت فرمانات (أى منشورات) صحبة عثمان كتخدا (نائب الوالى العثمانى) وفيها التنويه بذكر أعيان الكتبة الأقباط والوصية بهم مثل جرجس الجوهرى وواصف وملطى ، ومقدمهم فى تحرير الأموال الميرية ... » [٣١] .

* * *

كانت السفن الإنجليزية بقيادة الأدميرال اللورد كيث (Keith) ترسو قرب شاطىء رشيد لتقل قوات حامية القاهرة بقيادة بليار ومن شاء أن يسافر معها إلى فرنسا ، بينما كان منو بقواته ما زال بمنطقة الاسكندرية .

ووصل بليار ورجاله المنسحبون من القاهرة إلى رشيد فى أواخر يوليو ١٨٠١ ، ومعهم يعقوب ومن صحبه من المصريين والمتمصرين . ورافق يعقوب من أسرته والدته وزوجته وابنته وأخوه حنين وابن أخته غبريال سيد اروس . وهناك وجد بليار رسالة من القبطان العثمانى حسن باشا يطلب إليه فيها أن يقنع المعلم يعقوب بالبقاء فى مصر لكى تنتفع السلطات العثمانية التى استردت مصر بخدماته المالية ، كما انتفعت بخدمات بنى قومه من كبار الكتبة والصيارف . ولكن يعقوب لم يستجب لهذا الطلب رغم إلحاح القبطان وإغرائه له بالبقاء ، ورغم محاولة بليار لإقناعه . ولعله خشى من مؤامرة عثمانية (غير مستبعدة) على حياته ، جزاء موقفه وتصرفاته فى أثناء الاحتلال الفرنسى للبلاد .

ركب يعقوب ومن معه الفرقاطة پالاس (Pallas) ، وهى السفينة

٥٠

نفسها التى أقلت الجنرال بليار وعددا من جنوده وضباطه . وأبحرت پالاس بقيادة القبطان جوزيف إدموندس (J. Edmonds) فى ١٠ أغسطس متجهة أولا الى قبرص وساحل شبه جزيرة آسيا الصغرى . وبعد أن أقلعت السفينة بيومين أصيب يعقوب بالحمى ، وما لبث ان اشتد عليه المرض ومات فى عرض البحر ، بعد أربعة أيام ، فى ١٦ أغسطس . وقد كانت آخر كلماته وهو يحتضر للجنرال بليار ان يدفن مع صديقه ديسيه فى قبر واحد !

ولم يلق ربان السفينة بجثة يعقوب الى البحر كالمعتاد فى مثل هذه الحالة ، بل استمع الى رجاء من معه فاحتفظ بالجثة فى دن من الخمر حتى وصلت السفينة الى مرسيليا . وهناك تم دفنها فى جبانة المدينة .

قصة مشروع الاستقلال

لم تنته حكاية المعلم يعقوب بإبحاره من الشواطىء المصرية ولا بوفاته ، وانما على العكس بدأت بذلك قصة من أغرب القصص التى ذيل بها تاريخ الحملة الفرنسية فى مصر ، والتى شغلت لغرابتها عددا من المؤرخين ، ذهبوا فى تأويلها والتعليق عليها مذاهب شتى تأرجحت بها بين الحقيقة والأسطورة . ويشارك يعقوب بطولة هذه القصة مغامر أوروبى شاب اسمه تيودور لاسكاريس (T. Lascaris) وهو شخصية غامضة مهتزة ، ظهر على مسرح الأحداث مع يعقوب منذ أقلعت السفينة پالاس بعد وفاة « المعلم » فمن هو لاسكاريس هذا ؟

ولد لاسكاريس عام ١٧٧٤ من أسرة إيطالية نبيلة (أى أنه كان وقت الرحيل عن مصر فى السابعة والعشرين من عمره) ، وانخرط هو وأخ له فى سلك فرسان القديس يوحنا بجزيرة مالطة ، التى غزاها بونابرت وهو فى طريقه إلى مصر عام ١٧٩٨ ، وانتزعها من أيديهم وقضى على سطوتهم (شكل ٥) . وهؤلاء الفرسان هم الذين أشار اليهم بونابرت فى منشوره العربى الأول إلى المصريين بكلمة « الكواللبرية » وهى تعريب للكلمة الايطالية (Cavaleri) بمعنى

شكل (٥) الفارس لاسكاريس



فرسان ، فقال بالنص « إن الفرنساوية هم أيضا مسلمون خالصون ، وإثباتا لذلك قد نزلوا فى رومية الكبرا (كذا) وخربوا فيها كرسى البابا الذى كان يحث دايما النصارا (كذا) على محاربة الإسلام ثم قصدوا جزيرة مالطة وطردوا منها الكواللبريه الذين كانوا يزعموا أن الله تعالى يطلب منهم مقاتلة المسلمين .. » (شكل ٦) . وتقول بعض مراجع الحملة ، بل ويقول بونابرت نفسه فى مراسلاته،إن الأخوين الفارسين كانا مصابين بلون من الهوس وشذوذ الأهواء وإن كان بطلنا أخف حالة من أخيه الذى وصل به الأمر إلى حد الجنون .

كان تيودور لاسكاريس ذا عقل مغرق فى الخيال ، وقد صحب حملة بونابرت الى مصر ، وهناك تقلد بعض المناصب الإدارية فى خدمة حكومة الحملة . وأطلق لاسكاريس لخياله العنان فأخذ يقترح على سلطات الحملة ـــ وبخاصة أيام منو ـــ عدة مشروعات غير عملية ولا مدروسة ، مثل إقامة عاصمة جديدة لمصر عند تفرع النيل برأس الدلتا يطلق عليها اسم « منو بوليس » تخليدا لاسم الجنرال منوَ ! ومثل تمكينه من ضبط مياه النيل واستزراع الصحراء .. الخ . وقد قدم لإحدى رسائله إلى عبد الله منو التى ذكر فيها بعض هذه المشروعات بديباجة تلقى الضوء على تكوينه العقلى وأسلوب تفكيره . قال لاسكاريس لمنو « إن القدر يهيىء لكل إنسان فى هذا العالم الطريق الذى يسلكه . فهناك من هيأ له القدر أن يكون من الغزاه الفاتحين ، وهناك من قدر له أن يكون مجرد صانع أحذية . ومن الناس من قدر له أن يكون من مؤسسى الدول والمشرعين ، بينما قدر لآخرين أن يقيموا الأسر وينجبوا الأطفال .. الخ » أما هو فقد قدر له أن يكون « من أصحاب المشروعات » . ويقول « إننى كثيرا ما ارتفع بنفسى فوق عالم الواقع لكى أخطط لمشروعاتى ، وأترك لخيالى أن يذلل كل ما قد يعترضها من عقبات . آه ما أجمل الخيال ، إنى لأجد فيه سعادتى »ولكن منو لم يأخذ مشروعات لاسكاريس يوما مأخذ الجد ، بل كان كثيرا ما يحلو له ان يمازحه ويسخر من خيالاته ويعرّض بما يتلبسه من

جنون العظمة [٣٢] .

غير أنه ينبغى أن نتوقف عند مشروع واحد من مشروعات لاسكاريس الحالم ، لأنه كان محور القصة التى جرت أحداثها على سطح الفرقاطة پالاس بعد وفاة المعلم يعقوب ، ولأنه هو الذى جمع بين الرجلين منذ البداية على أرض مصر قبل مغادرتها ببضعة أشهر . لقد فكر لاسكاريس فى أن تنسلخ مصر من حكم العثمانيين وأن تتخلص كذلك من طغيان المماليك ، وذلك بمساعدة فرنسا وحمايتها . ولكن مادامت احتمالات جلاء الفرنسيين عن مصر قائمة (كان ذلك فى عهد منو) ، فلا سبيل إلى تحقيق ذلك الهدف إلا بأن تدعم سلطات الحملة الفيلق القبطى بحيث تكون كفته هى الراجحة فى أى قتال ينشب من أجل الاستيلاء على السلطة فى البلاد من جانب العثمانيين أو المماليك . واستكمالا لمشروعه اقترح لاسكاريس أن يترك الفرنسيون عند جلائهم عن مصر ذخيرة حربية كافية ، مع قوة من الجيش تنسحب جنوبا نحو إقليم النوبة معلنة رفضها الجلاء مع سائر قوات « جيش الشرق » . وسوف يسهل على هذه القوة فتح إقليم النوبة والاستقرار به حتى تستدعى الأمور انحدارها ثانية نحو الشمال لمساندة الفيلق القبطى . والغريب أن لاسكاريس استطاع أن يقنع بالخطوط العامة لمشروعه بعض الفرنسيين ، مثل المستشرق مارسيل والجنرال ديپوى (حاكم القاهرة) ، هذا إلى جانب الجنرال يعقوب بالطبع [٣٣] .

ولكن الجنرال منو سخر كعادته من أحلام لاسكاريس ولم يقتنع مطلقا بمشروعه . ويقول شفيق غربال إنه حالت دون اقتناع القائد الفرنسى « قلة ثقته بالفارس وبالأقباط عامة ويعقوب خاصة » وإن كان هذا لم يمنع منو من أن يمضى فى الإفادة من جهود كل من لاسكاريس ويعقوب . وتقول وثائق الحملة إن منو ألحق لاسكاريس بالعمل مع يعقوب لكى يعاونه فى إنشاء شبكة تجسس على العثمانيين وحلفائهم تمتد

شكل (٦) منشور بونابرت الأول



بسم الله الرحمن الرحيم لا إله إلا الله لا ولد له ولا شريك فى ملكه ۞

من طرف الجمهور الفرانساوى المبنى على أساس الحرية والتسوية السر عسكر الكبير بونابارته أمير الجيوش الفرانساوية يعرّف أهالى مصر جميعهم أن من زمان مديد الصناجق الذين يتسلطنوا فى البلاد المصرية يتعاملوا بالذل والاحتقار فى حق الملة الفرانساوية ويظلموا تجارها بأنواع البلص والتعدى فحضر الآن ساعة عقوبتهم ۞

وحسرتا من مدة عصور طويلة هذه الزمرة المماليك المجلوبين من جبال الأبازا والكرجستان يفسدوا فى الإقليم الأحسن الذى يوجد فى كرة الأرض كلها فأما رب العالمين القادر على كل شئ فإنه قد حتم على انقضاء دولتهم ۞

يا أيها المصريون قد يقولوا لكم إننى ما نزلت فى هذا الطرف إلا بقصد إزالة دينكم فذلك كذب صريح فلا تصدقوه وقولوا للمفترين إننى ما قدمت إليكم إلا لكيما أخلص حقكم من يد الظالمين وإننى أكثر من المماليك أعبد الله سبحانه وتعالى وأحترم نبيه والقرآن العظيم ۞

وقولوا أيضاً لهم إن جميع الناس متساويين عند الله وإن الشئ الذى يفرقهم من بعضهم بعضاً هو العقل والفضائل والعلوم فقط وبين المماليك ما العقل والفضائل والمعرفة التى تميزهم عن الآخرين وتستوجب أنهم يتملكوا وحدهم كلما يحلو به حياة الدنيا ۞

حيث يوجد أرض خصبة فهى مختصة للمماليك والجوارى الأجمل والخيل الأحسن والمساكن الأشهى فهذا كله لهم خاصة ۞

إن كانت الأرض المصرية التزاماً للمماليك فليبرزوا الحجة التى كتبها لهم الله فلكن رب العالمين هو رؤوف وعادل على البشر بعونه تعالى من اليوم فصاعداً لا ييأس أحد من أهالى مصر عن الدخول فى المناصب السامية وعن اكتساب المراتب العالية فالعقلاء والفضلاء والعلماء بينهم سيدبروا الأمور وبذلك يصلح حال الأمة كلها ۞

سابقاً فى الأراضى المصرية كانت المدن العظيمة والخلجان الواسعة والمتجر المتكاثر وما أزال ذلك كله إلا الطمع وظلم المماليك ۞

أيها القضاة والمشايخ والأئمة ويا أيها الشوربجية وأعيان البلد قولوا لأمتكم إن الفرانساوية هم أيضاً مسلمين خالصين وإثباتاً لذلك قد نزلوا فى رومية الكبرى وخربوا فيها كرسى البابا الذى كان دائماً يحث النصارى على محاربة الإسلام ثم قصدوا جزيرة مالطة وطردوا منها الكواللرية الذين كانوا يزعمون أن الله تعالى يطلب منهم مقاتلة المسلمين ومع ذلك الفرانساوية فى كل وقت من الأوقات صاروا محبين مخلصين لحضرة السلطان العثمانى وأعداء أعدائه أدام الله ملكه ومع ذلك إن المماليك امتنعوا من إطاعة السلطان غير ممتثلين لأمره فما أطاعوا أصلاً إلا لطمع أنفسهم ۞

طوبى ثم طوبى لأهالى مصر الذين يتفقوا معنا بلا تأخير فيصلح حالهم وتعلى مراتبهم طوبى أيضاً للذين يقعدوا فى مساكنهم غير مائلين لأحد من الفريقين المحاربين فإذا يعرفونا بالأكثر يتسارعوا إلينا بكل قلب ۞

لكن الويل ثم الويل للذين يتحدوا مع المماليك ويساعدوهم فى الحرب علينا فما يجدوا طريق الخلاص ولا يبقى منهم أثر ۞

۞ المادة الأولى ۞

جميع القرى الواقعة فى دائرة قريبة بثلاث ساعات عن المواضع التى يمر بها العسكر الفرانساوى فواجب عليها أنها ترسل للسر عسكر بعض وكلاء من عندها لكيما يعرّفوا المشار إليه أنهم أطاعوا وأنهم نصبوا السنجاق الفرانساوى الذى هو أبيض وكحلى وأحمر ۞

۞ المادة الثانية ۞

كل قرية التى تقوم على العسكر الفرانساوى تنحرق بالنار ۞

۞ المادة الثالثة ۞

كل قرية التى تطيع للعسكر الفرانساوى الواجب عليها نصب السنجاق الفرانساوى وأيضاً نصب سنجاق السلطان العثمانى محبنا دام بقاه ۞

۞ المادة الرابعة ۞

المشايخ فى كل بلد ليختموا حالاً جميع الأرزاق والبيوت والأملاك التى تتبع المماليك وعليهم الاجتهاد الزائد لكيلا يضيع أدنى شئ منها ۞

۞ المادة الخامسة ۞

الواجب على المشايخ والقضاة والأئمة أنهم يلازموا وظائفهم وعلى كل واحد من أهالى البلد أنه يبقى فى مسكنه مطمئناً وكذلك تكون الصلاة قائمة فى الجوامع على العادة والمصريون بأجمعهم ليشكروا فضل الله سبحانه وتعالى من انقراض دولة المماليك قائلين بصوت عال أدام الله إجلال السلطان العثمانى أدام الله إجلال العسكر الفرانساوى لعن الله المماليك وأصلح حال الأمة المصرية ۞

تحريراً بمعسكر إسكندرية فى [illegible] من شهر مسيدور سنة [illegible] من إقامة الجمهور الفرانساوى يعنى فى أواخر شهر محرم سنة هجرية ۞

إلى سوريا . وبعث القائد برسالة إلى يعقوب تتضمن هذا المعنى ، وكان ذلك فى مارس ١٨٠١ عندما تأزمت أمور الحملة وأوشك الفرنسيون على تسليم مصر الى العثمانيين . وهكذا لازم لاسكاريس يعقوب منذ ذلك الحين حتى غادرا مصر سويا ، أى طيلة خمسة شهور . وكان لهذه العشرة ولاشك أثرها فى القصة التى جرت أحداثها فوق سطح السفينة بالاس .

مسرحية بحرية

تبدأ هذه الأحداث بعدة لقاءات بين يعقوب وقبطان السفينة ، الذى قدر مكانة يعقوب فى قومه ولدى الفرنسيين على السواء ، فخصه بشىء من الحفاوة والتكريم . وفى هذه اللقاءات تبادل الرجلان عدة أحاديث كان لاسكاريس يقوم خلالها بدور المترجم بينهما . وقد دارت موضوعات الأحاديث حول مصر ، حاضرها ومستقبلها . وفيها أدان يعقوب من خلال مترجمه الحكم العثمانى لمصر ووصمه بأسوأ النعوت . وقال إنه أيد الاحتلال الفرنسى للتخفيف مما حاق بمواطنيه من أذى وما وقع عليهم من ظلم واضطهاد . وأضاف يعقوب للقبطان إدموندس من خلال لاسكاريس إنه غادر بلاده سعيا وراء تحقيق استقلالها عن الدولة العثمانية . وواضح أن مضمون هذا الكلام يشبه أفكار لاسكاريس التى سبق أن عبر عنها فى مشروعه الذى قدمه الى الجنرال منو قبل أن يلتحق بالعمل مع يعقوب .

ولما كان ميزان القوى قد مال ، وانتهى الوجود الفرنسى بمصر على يد العثمانيين والإنجليز معا ، ولما كان يعقوب يبحر هو ومن معه على سفينة انجليزية ويتحدث إلى قائدها الذى أكرمه وكان به حفيا ، فقد رأى هو

أو مترجمه أو هما معا — أن من الكياسة ألا يشير إلى فرنسا المهزومة بوصفها القوة الأوربية التى سوف يعتمد عليها فى تحقيق انسلاخ مصر عن الدولة العثمانية ، وأن من حسن السياسة أن يحول الدفة مع تحول التيار نحو بريطانيا . ومن ثم قال يعقوب فى أحاديثه مع الربان الإنجليزى إنه عندما رأى أن يعتمد فى تحقيق غايته على فرنسا لم يكن يدرك مدى قوة بريطانيا . أما الآن فقد أيقن أن الفرنسيين خدعوا المصريين وأن مواطنيه يحتقرونهم اليوم كما كانوا يحتقرون الأتراك من قبل ، وأن تحقيق ما يسعى إليه مستحيل بدون تأييد الحكومة الإنجليزية ! ! ومن ثم فهو يرجو القبطان إدموندس أن يبلغ هذا الموضوع إلى رئيسه قائد البحرية ليرفعه بمعرفته إلى حكومته .

وأراد لاسكاريس أن يضفى على هذه الأحاديث التى لم تستمر لأكثر من يومين (بين إبحار السفينة ومرض يعقوب) أهمية خاصة ويسبغ عليها طابعا رسميا ، فأضاف إلى ما ذكره يعقوب من خلاله لإدموندس أن الجنرال يعقوب إنما يسافر على رأس « وفد مصرى » اختاره أعيان البلاد ليفاوض الحكومات الأوربية المعنية فى موضوع استقلال مصر .

* * *

ويبدأ الفصل الثانى من القصة بعد وفاة يعقوب ، عندما قرر لاسكاريس ، وقد انفرد بمسرح الأحداث ، أن الوفد المصرى باق رغم موت رئيسه . واتفق مع إدموندس على أن يعدّ له مذكرة يسجل بها الموضوعات التى دار حولها الحديث بينه وبين يعقوب قبل موته ، لكى يرفعها إدموندس إلى حكومته عن طريق رئيسه الأدميرال اللورد كيث . وتعهد له إدموندس بذلك ، وبأن يحفظ الأمر سرا حتى لا يتسرب الى جهة قد تفسد الخطة .

وقد عكف لاسكاريس بالفعل فى ميناء طولون على كتابة مذكرة

بالفرنسية من عدة أجزاء . وسلمها للربان الإنجليزى . وهى مؤرخة ٢١ سبتمبر ١٨٠١ بعد أن كانت « پالاس » قد ألقت مراسيها فى هذا الميناء ببضعة أيام .

وتقع مذكرة لاسكاريس فى إحدى عشرة فقرة مرقمة ، تتناول كل منها جزئية من جزئيات الموضوع . ويلفت النظر فى هذه المذكرة أن بعض العبارات تتخللها فراغات ويبدو أن الكاتب لم يجد الكلمات المناسبة لملئها ، وأن عبارات أخرى قد أكدها صاحبها بوضع خط تحتها .

قدم لاسكاريس لفقرات مذكرته بقوله : « مذكرات مرفوعة للقبطان جوزيف إدموندس لتذكيره مستقبلا بالنقاط الرئيسة لأحاديثنا السياسية على ظهر سفينته » . ويمكن تلخيص أهم ما تضمنته هذه المذكرات من نقاط وإشارات فيما يلى :

١ — ناشد لاسكاريس إدموندس أن يؤيد وجهة نظره عند عرض الموضوع على قائده ، حتى يكون هذا سندا له لدى الحكومة البريطانية .

٢ — قال إن مصر جديرة بأن تؤيد الحكومات الأوربية مشروع الوفد الذى فوضه المصريون ، إن لم يكن من أجل ماضيها العريق واعترافا بفضلها على الحضارة ، فعلى الأقل من قبيل العطف عليها .

٣ — أشار الى احتمال أن تتقدم حكومة الجمهورية الفرنسية نفسها فيما بعد إلى الحكومة البريطانية باقتراح تؤيد فيه الآراء الموضحة بالمذكرة . وإذا حدث ذلك فانه سوف يكون بتأثير الوفد المصرى فى باريس ، مع ملاحظة أن تحقيق هذا المشروع ليس فى صالح فرنسا بقدر ما هو فى صالح بريطانيا .

٤ — حث الإنجليز على أن ينتهزوا هذه الفرصة التاريخية التى توشك فيها الإمبراطورية العثمانية أن تتداعى من كل جانب ، فيضمنوا لأنفسهم السيطرة على مصر . وإذا كان من المستحيل على بريطانيا أن تستعمر مصر ، كما استحال ذلك على فرنسا من قبل ، فالأنسب أن تكون مصر مستقلة عن الدولة العثمانية ، وفى الوقت نفسه خاضعة لنفوذ بريطانيا سيدة البحار المحيطة بمصر . ولا شك أن بريطانيا بحكم مركزها الخاص فى الهند سوف تفيد أكبر فائدة من السيطرة على التجارة مع مصر الغنية بحاصلاتها الوفيرة وبتجارتها مع قلب افريقيا .

٥ — أكد أهمية إحكام النفوذ البريطانى لا مجرد السيطرة التجارية على مصر . فقد تعود فرنسا كما كانت حليفة للباب العالى ، وعندئذ قد يتخذ العثمانيون من الاجراءات ما يؤدى الى تحطيم التجارة الانجليزية فى الشام والبحر الأحمر .

٦ — ندد بحكم الفرنسيين لمصر فى أثناء احتلالهم لها ، وأشار الى ما سبق أن ترذد فى الأحاديث مع إدموندس من كراهة المصريين لهم نتيجة لذلك . ثم أكد أن مصر المستقلة ، بعد أن أدرك أهلها حقيقة الإنجليز ، لا يمكن إلا أن تكون موالية لبريطانيا .

٧ — اعتذر عن عدم الخوض فى تفصيلات نظام الحكم لمصر المستقلة . فالتغيير المطلوب لن يكون نتيجة ثورة تقوم على أساس من آراء أو مبادىء معينة ، وإنما سيكون وضعا تفرضه قوة قاهرة على شعب مسالم جاهل لا يكاد يحرك أفراده سوى عاطفتى المصلحة والخوف . ومن ثم فيكفى أن ترفع الحكومة الجديدة قليلا من المستوى المادى للشعب فتنال تأييده ومساندته . ولا شك أن أى نظام للحكم سيكون أفضل من

الاستبداد التركى . فلتكن الحكومة الجديدة إذا عادلة حازمة وطنية كما كانت حكومة شيخ العرب همام فى الصعيد (التى قضى عليها على بك الكبير قبل الحملة الفرنسية بنحو ثلاثين عاما) .

٨ — من حيث الدفاع قال إنه ليس من المتوقع أن تهاجم الدول الأوربية مصر ، ولكن هذه الدول تستطيع أن تردّ عن مصر عدوان الأتراك والمماليك . وفى الوقت نفسه يستطيع المصريون أن يستخدموا على حسابهم قوة دفاع أجنبية يتراوح عددها بين ١٢ و ١٥ ألف رجل يكفون تماما لحماية مصر من الأتراك والمماليك جميعا ، وتكون هذه القوة نواة لجيش وطنى . ثم إنه يمكن شراء ذمم العثمانيين بالمال حتى لا يفكروا فى الهجوم على مصر .

٩ — من حيث الأمن الداخلى قال إن الشعب فى مصر ينقسم إلى عدة طوائف ، وإن هذا يتيح الوسائل لدفع هذه الطوائف بعضها ببعض لحفظ التوازن بينها . وأكد أن الوفد المصرى على صلات بهذه الطوائف جميعا دون ما تحيز ، وأن هذه الصلات لا يعلم بها جهاز الحكم التركى المستبد ، وإلا كانت العاقبة وخيمة على « الأخوة دعاة الاستقلال » .

١٠ — أكد أن المصريين عامة ، ووفدهم لدى الحكومات الأوربية بوجه خاص ، سيبذلون كل ما بوسعهم من جهد ليتحرروا من ذلك النير الذى يثقل كاهل بلادهم التعسة ، وأن المشروع السياسى الذى يسعى الوفد لتحقيقه هو فى صالح الدول الأوربية جميعا ، بل وفى صالح تركيا كذلك .

١١ — قال انه اذا خاب سعى المصريين ولم يحقق اتفاق الصلح العام أملهم ، وعاد العثمانيون إلى امتلاك مصر ، فإن المهاجرين

المصريين يرجون أن تدبر لهم الدول المتعاقدة ضمانا يقيهم شر انتقام السلطات التركية إذا ما رجعوا إلى وطنهم .

١٢ - حذر من تسرب خبر هذه « المفاتحات » إلى فرنسا أو إلى أى طرف آخر يمكن أن يعرقل ما تمهد له من « مفاوضات » . فخطة الوفد هى إقناع الجانب الإنجليزى أولا بمشروعه ، والسعى لأن تكون فرنسا نفسها هى البادئة بعرض المقترحات الأولى على بريطانيا ... وبذلك لا يتعرض المشروع لرفض الإنجليز بسبب العداء بينهم وبين الفرنسيين ، أو بسبب دسيسة من جانب فرنسا .

١٣ - رتب طريقة الاتصال بالوفد المصرى فى باريس باستخدام « شفرة » خاصة ، وعن طريق صديق للوفد يقيم بأوربا . (وهو مصرى قبطى اسمه انطون قسيس عمل طويلا فى خدمة امبراطورية النمسا مستظلا بحمايتها فى مصر ، ثم استقر فى تريستا وأصبح يدعى الكونت أنطون كاسيس : A. Cassis) .

وينتهى الفصل الثانى من القصة بإقلاع ادموندس بسفينته الى جزيرة مينورقا غربى البحر المتوسط ، بعد أن يكون قد أدى المهمة الأساسية لرحلته ، فأفرغ حمولته البشرية بما فيها جثمان الجنرال يعقوب على الأرض الفرنسية .

* * *

ويتسع مسرح الأحداث فى الفصل الثالث ليمتد من ميناء مرسيليا فى جنوب فرنسا إلى جزيرة مينورقا التى رسا بها إدموندس . فعلى ظهر السفينة بالاس هناك أوفى القبطان الإنجليزى بما وعد ، فرفع مذكرة لاسكاريس مرفقة برسالة مؤرخة ٤ أكتوبر دبجها إلى إيرل سانت

فنسنت (S. Vincent) وزير البحرية البريطانية . وقد آثر إدموندس أن يرفع مذكرة لاسكاريس رأسا الى الوزير متخطيا رئيسه المباشر اللورد كيث ، مع أن هذا هو ما كان مفروضا أن يحدث ، وهو نفسه ما طلبه يعقوب ولاسكاريس من إدموندس ، وذلك أخذا بالأحوط وإبراء لذمته ووفاء بعهده . وقد برر هذا التخطى الإدارى فى رسالته إلى الوزير فى بدايتها ونهايتها . لقد بدأها بقوله « استبحت لنفسى أن أرفع إليكم مباشرة المذكرات المرفقة بكتابى هذا اعتقادا منى بأنه قد يكون من المفيد لحكومة بلادى أن تعلم أن بعض الأشخاص الذين يطلقون على أنفسهم الوفد المصرى موجودون الآن فى باريس » . وختم الرسالة بقوله « ... رأيت من الضرورى إبلاغكم رأسا بهذه المذكرات والمعلومات ، اذ قد يمضى بعض الوقت قبل أن تتاح لى فرصة إبلاغها أولا الى قائدى العام اللورد كيث ، وآمل أن تتفضلوا فتقدروا مسلكى هذا » .

ضمّن القبطان إدموندس رسالته التى قدم بها المذكرات إلى الوزير خلاصة موجزة لما حدثه به يعقوب ، بعد أن أشار إلى أنه من زعماء طائفة الأقباط وله فيها نفوذ كبير ، وأن الفرنسيين جعلوه قائدا لفيلق من أبناء طائفته لينالوا تأييده . وأكد أنه أعطى موثقا لمحدثه بألا يستخدم هو أو تستخدم الحكومة البريطانية ما أبلغه به استخداما يمكن أن يسىء إليه هو ومن معه . ولكن إدموندس أبدى تحفظه إزاء نقطتين :

١ - فقد تشكك فيما ذكره له لاسكاريس الذى كان يترجم بينه وبين محدثه من أن يعقوب يرأس وفدا فوضه أعيان مصر لمفاوضة الدول الأوربية فى استقلال هذا البلد « .. لا يمكننى تقدير مدى ما يحمله (الوفد) من تفويض وما يملكه من صلاحيات » .

٢ - وكذلك تشكك فى حقيقة الدور الذى يقوم به لاسكاريس . فهل هو عضو فى هذا (الوفد) أم أنه مجرد سكرتير مترجم

ليعقوب . ثم وصف لاسكاريس بأنه رجل « مغرق فى الخيال » .

وهاتان الوثيقتان (مذكرة لاسكاريس ورسالة إدموندس) مازالتا محفوظتين بوزارة الخارجية البريطانية . وكان أول من أشار اليهما الأستاذ شفيق غربال وأول من قدمهما بنصيهما (فى كتاب طبع بمصر) المؤرخ الفرنسى جورج دوان (G. Douin) [٣٤] .

أما على الطرف الآخر من المسرح ، فقد شغل المهاجرون الذين نزلوا إلى الشاطىء الفرنسى بتشييع جثمان يعقوب إلى مثواه الأخير فى مقبرة بمارسيليا . وبينما كانوا يتممون الإجراءات الصحية بمحجر الميناء كان لاسكاريس يعد لمشهد جديد . فقد بدأ يخطو خطوة أخرى يكمل بها محاولته الأولى مع الحكومة الإنجليزية ، فحرر مذكرة بالفرنسية كذلك إلى « القنصل الاول » بونابرت . ولكنه للحيطة لم يوقع عليها ، وإنما جعل التوقيع لشخص آخر من جماعة المهاجرين المصريين هو « نمر افندى » ، وذلك « نيابة عن الوفد المصرى » . وصاحب هذه الشخصية التى ظهرت فجأة على مسرح الأحداث والتى تستر وراءها لاسكاريس هو سورى مسيحى كان يعمل مترجما للغات الشرقية فى مصر ، واسمه لطفى (أو لطف الله) نمر [٣٥] .

وتتضمن هذه المذكرة الموجهة « إلى القنصل الأول للجمهورية الفرنسية من الوفد المصرى الذى يكن له أعظم التقدير » النقاط التالية :

— إشادة بتاريخ مصر القديم وحضارتها التى كان يتلقى عنها دروس العلم والعرفان مشرّعو الإغريق (مثل سولون) .

— تنويه بإنجازات الجمهورية الفرنسية الناشئة فى الحرب والسلم ، وبخاصة تحت حكم بونابرت .

— إن الوفد المصرى الذى فوضه المصريون « الباقون على ولائهم

لبونابرت » سيضعون لمصر من النظم ما يرضاه لها القنصل الأول .

— تملق لبونابرت ومناشدة له أن يتنزل فيمد يد المساعدة « للمصريين التعساء » الذين حطم فى الماضى أغلالهم ثم عادوا ينوءون بها من جديد ، من أجل مجده ولمصلحة فرنسا .

— إشارة إلى « الفتح العظيم » الذى ناله بونابرت ثم فقده (بالجلاء عن مصر) ، وتأكيد أن القائد الفرنسى إذا أيد فى اتفاقيات الصلح أن تكون مصر مستقلة ، فسوف يعوض هذا الموقف خسارته تلك مائة مرة .

ولم يكتف لاسكاريس بهذه المذكرة التى حاول بها إقامة جسر بين المهاجرين المصريين والحكومة القنصلية فى باريس ، وإنما أردفها بمذكرة أخرى إلى تاليران (Talleyrand) وزير الخارجية الفرنسية وقعها كذلك « نمر افندى » . وفى هذه المذكرة :

— إعلان لولاء الوفد المصرى — الذى فقد زعيمه يعقوب — وحبه للجمهورية الفرنسية .

— رجاء إلى الوزير الفرنسى بأن يتفضل ويضع الوفد ومجموعة المهاجرين فى كنفه وتحت رعايته .

— تأكيد أن الوفد المصرى يمثل شعب مصر تمثيلا كاملا ، ويعبر عن أمانى هذا الشعب وما أجمع عليه .

— تحديد مطالب المصريين فى نقطتين : سحق القوة الغاشمة التى عادت تستبد بهم من جديد ، والاعتماد على فرنسا فى تحقيق هدفهم الذى يخدم فى الوقت نفسه مصلحة الجمهورية الفرنسية ذاتها .

— تكرار ما تضمنته المذكرة الموجهة إلى القنصل الأول من أن فرنسا تستطيع عن طريق الاستماع إلى هذا الوفد قبل توقيع اتفاق الصلح مع بريطانيا ، أن تعوض ما خسرته بالجلاء عن مصر ، وأن تحتفظ للأبد

بنفوذها السياسى فى الشرق .

ـــ تأكيد أن فرنسا يمكنها أن تمد نفوذها نحو أواسط أفريقيا بواسطة مصر التى لن تكون إلا موالية لها « وهكذا يتحول تركُّكم مصر للإنجليز من نكبة إلى سبب لمجد للقنصل الأول ومصدر رفاهية للأقاليم الفرنسية .. » !

ـــ مناشدة الوزير أن يستقبل الوفد المصرى فى باريس ويستمع الى تفصيلات ما أجمله فى رسالته ، وأن يتفضل فيعمل على أن تصل رسالته الأخرى المرفوعة الى القنصل الأول ، وأن يتنزل هذا بالرغم من ثمين وقته فيطلع عليها .

وهاتان المذكرتان أو الرسالتان ما زالتا محفوظتين بوزارة الخارجية الفرنسية . وقد ورد ذكرهما لأول مرة فى مقال كتبه المؤرخ الفرنسى أوريان (Auriant) عن لاسكاريس عام ١٩٢٤ (٣٦) ، ثم ترجمهما بعد بضع سنوات الأستاذ شفيق غربال وألحقهما ببحثه المشار إليه من قبل .

* * *

تلك المذكرات ، سواء ما اتخذ منها طريقه إلى لندن أو ما أرسل إلى باريس تكوّن فى مجموعها ما سماه عدد من المؤرخين « مشروع استقلال مصر » ، ونسبوه إلى الجنرال يعقوب رئيس الوفد المصرى . ومن ثم رأى بعضهم أن يمجدوا هذا الرجل لأنه سبق عصره بأكثر من قرن فحمل فى جعبته وهو يغادر مصر « مشروعا خطيرا هو مشروع الاستقلال الأول » .

وبادىء ذى بدء ينبغى أن نحدد صاحب هذا المشروع . فهل هو يعقوب الذى مرض بعد يومين فقط من إبحار السفينة التى غادر مصر

على ظهرها ؟ أم هو لاسكاريس صاحبه ومترجمه الذى نقل فحوى أحاديثه إلى قبطان السفينة ثم صاغها فى تلك المذكرات فيما بعد ؟ أم اشترك الرجلان فى هذا العمل ؟ ثم ... هل كان هناك حقا « وفد مصرى » ضمن جماعة المهاجرين من مصر ؟ وهل هذا الوفد مفوض من قبل الشعب المصرى أو من قبل قطاعات معينة فيه ؟ ومن الذى فوضه أو أوفده بالضبط ؟ لنتأمل ما يلى من ملاحظات ، فلعل فيها ما يجيب عن هذه التساؤلات :

١ – إذا كان يعقوب قد عبر عن أمنيته فى استقلال مصر أو بعبارة أصح فى انسلاخها عن الدولة العثمانية ، فليس هذا بمستبعد على رجل كان له ما رأينا من نزعات وطموحات ومواقف . غير أن المشروع المدون يتضمن بعض الأفكار الفلسفية والحقائق التاريخية والسياسية التى تدل على شىء من خلفية ثقافية نحسب أن يعقوب كان بحكم نشأته وتكوينه أبعد ما يكون عن اكتسابها . وتكفى الإشارة إلى ما ورد بالمذكرات عن حضارة مصر القديمة وصلتها بالحضارة اليونانية ، وعن المشرِّع سولون ، وعلاقات مصر بأفريقيا ، ومركز بريطانيا بالهند ، ونظام الحكم الفرنسى .. الخ ، ليرجح لدينا أن وراء هذا المشروع أفكار لاسكاريس لا يعقوب .

٢ – إن لاسكاريس كما علمنا هو الذى سبق أن تقدم إلى الجنرال منو بمشروع مشابه لاستقلال مصر لم يقتنع به القائد الفرنسى وأشبع صاحبه سخرية .

٣ – إن المشروع بما ردده من أوهام وما قدمه من مقترحات غير واقعية أكثر اتفاقا وشخصية لاسكاريس المسرف فى الخيال الذى « يعيش فى عالم كامل من أحلام اليقظة » وذلك مثل إنشاء القوة الأجنبية المرتزقة ، واتفاق الدول الأوربية على ضمان استقلال

مصر ، وتقدير شعب مصر للإنجليز وإدراكه لقوتهم ، وأن مصر المستقلة لا يمكن إلا أن تكون موالية لبريطانيا !

٤ – إن يعقوب الذى تعاون مع الفرنسيين فى أثناء احتلالهم لمصر إلى أقصى حد كما رأينا ، وأحبهم وفضل أن يترك بلاده ويلحق بهم عند جلائهم عنها ، لايعقل أن يتحول فجأة إلى ذم هؤلاء الفرنسيين والتنديد بأساليبهم فى حكم مصر ، وإلى الإعجاب ببريطانيا وإظهار الولاء لها ، ومناشدتها العمل على تحقيق استقلال بلاده ، ثم محاولة تأليبها على فرنسا . وحتى إذا سلمنا جدلا بأن يعقوب قد تحول بولائه فعلا إلى الانجليز ، فكيف يمكن أن يكون فى الوقت نفسه وراء المذكرتين المرسلتين إلى بونابرت وتاليران ؟

٥ – إن التناقض البين ، والذى يثير السخرية ، بين ما كتبه لاسكاريس للإنجليز وما كتبه للفرنسيين يدعو إلى الشك فى جدية الموضوع . فلا يقبل العقل أن يتصرف مفاوض سياسى يتحدث عن استقلال شعب هذا التصرف البهلوانى الذى يتفق تماما وشخصية لاسكاريس لا شخصية يعقوب الذى لم يكن خياله يوما ، بالرغم من طموحاته ، فى جموح خيال صاحبه . وإنما كان دائما بسلوكه وتصرفاته رجلا جريئا معتدا بنفسه تغلب عليه النزعة العملية ، وإن كانت أحيانا غير متبصرة .

٦ – إن ملازمة لاسكاريس ليعقوب بضعة أشهر قبل جلاء الحملة لا تعنى مطلقا أنه عبّر فى مذكراته تعبيرا دقيقا عن آراء يعقوب ، كما وهم بعض المؤرخين ، فلم تكن ظروف مصر فى تلك الأيام لتنبىء عن تلك التغيرات والأحداث التى وقعت فيما بعد ، حتى يخطر على بال رجل مثل يعقوب أن يتصل بالانجليز ليعرض عليهم مشروعا ما .

٧ – إن إرسال إدموندس لمذكرات لاسكاريس إلى رئيسه الأعلى مباشرة لا تدل أبداً على اقتناعه بأنها تتضمن حديث يعقوب الذى أخذه « مأخذ الجد الخطير » كما يقول الدكتور لويس عوض [٣٧] . فلم يكن فى وسع القبطان الإنجليزى أن يغفل هذه المذكرات مهما كانت شكوكه فى جديتها أو أهميتها ، فهو جندى رأى من واجبه أن يخطر سلطات بلاده بما حدث على ظهر سفينته فى تلك الأيام الحرجة ، وبخاصة أنه لم تكن لديه أية خبرة أو معرفة سياسية بخلفية الأحداث وتطورها . ومع هذا فقد أعرب إدموندس عن تحفظه (أكثر من مرة) إزاء صفة لاسكاريس وحقيقة العلاقة بينه وبين المصريين المهاجرين ، وإزاء مدى ما بيد الوفد المصرى من تفويض . كما وصف لاسكاريس بأنه رجل حالم واسع الخيال . وإذا كان إدموندس قد ذكر فى رسالته لرئيسه أن الجنرال يعقوب أبلغه بكذا أو أعرب له عن كذا فلم يكن – كما نعلم – ينقل عنه مباشرة ، وإنما كان يردد ما ذكره له المترجم لاسكاريس . وليس من المستبعد أبدا ، بعد ما تبينا من غرابة أطوار لاسكاريس ، أن يكون قد حرف أحاديث يعقوب لكى تلائم أغراضه . ولو كان إدموندس قد علم بما يدبره لاسكاريس من اتصال مضاد بالمسئولين الفرنسيين لما أعار مذكرته إلى الوزير البريطانى أدنى اهتمام ، ولأصبح أكثر إدراكا لحقيقة ذلك الفارس الخيالى الذى يبارز طواحين الهواء !

٨ – لا يوجد أى دليل على أن مجموعة المهاجرين من مصر كانت تضم وفدا مفوضا من الشعب أو من أية طائفة ذات ثقل من طوائفه . فاذا كان علماء الأزهر ومن إليهم مثلا قد فوضوا من بين المهاجرين من يتحدث باسمهم ، فلم يكن الجبرتى ليغفل تسجيل هذا الحدث ، وهو الذى سجل من أحداث تلك الأيام

ما هو أقل أهمية بكثير . وليس هناك ما يدل على حصول يعقوب على تفويض من زعماء القبط . فلم تكن لأى منهم اهتمامات سياسية أو تطلعات مثل تطلعات زميلهم الطموح ، وانما كانوا دائما يؤثرون السلامة والبعد عن المشكلات . ولم تكن مثل هذه الخطوة كذلك لتفوت مؤرخا كالجبرتى أو من أرخوا للحملة من الفرنسيين . لقد اجتمع يعقوب قبل رحيله فعلا بعدد من زملائه كبار الأقباط . ويقول الدكتور لويس عوض معلقا على ذلك بما يوحى بربط هذا الاجتماع بمشروع الاستقلال « ولا نعلم على وجه التحقيق ماذا دار فى هذا الاجتماع ، وهل كانت له صبغة سياسية أم أنه كان قاصرا على مناقشة المسائل المالية ، ولعله أطلعهم على مشروعه ونواياه[٣٨] » . هذا مع أن الاستاذ شفيق غربال أثبت نقلا عن حمصى وغيره أن هذا الاجتماع كان لتفويض يعقوب فى مطالبة الحكومة الفرنسية برد مبلغ من المال أقرضه كبار الأقباط للجنرال منو عندما تأزمت أحوال الحملة فى أواخر أيامها [٣٩] .

- كان يعقوب فى حقيقة الأمر هاربا أو مهاجرا من مصر ، ولم تكن له فى وطنه قوة أو شعبية يعتمد عليها وتسنده فى موضوع خطير كالتفاوض من أجل الاستقلال مع القوتين العظميين فى ذلك الوقت . حتى فيلقه القبطى كان قد تشتت بددا كما رأينا قبل رحيله . وأقصى ما كان يتصور أن يراود يعقوب عندئذ من أمنيات شخصية هو أن تنسلخ مصر عن دولة الخلافة العثمانية ، وأن تصبح تابعة لدولة كبرى تحتضن أقلياتها وتزود عنهم سطوة الأغلبية .

١٠ - كان المهاجرون الذين رحلوا فى ذيل الحملة الفرنسية أشتاتا من

الأقباط ونصارى الشام والمرتزقة وبعض المسلمين الذين يخشون مواجهة سلطات الحكم العائد كعبد العال أغا الأنكشارية . ومثل هؤلاء لا يمكن أن يعتبروا بأى مقياس وفدا مصريا يتفاوض من أجل استقلال مصر .

ومن هنا فالحديث عن « وفد مصرى » يمثل مختلف طوائف مصر ويتزعمه يعقوب ويتفاوض من أجل استقلال البلاد يغدو مقولة واهية تفتقر إلى السند والبرهان .

نهاية الأحداث

كيف انتهت أحداث هذه القصة المثيرة ؟ إن هذا التساؤل الذى يفرض نفسه الآن يتطلب أن نجيب عن شقين : ما الذى أدت اليه هذه الاتصالات ، أو بالأحرى محاولات الاتصال ، مع حكومتى القوتين العظميين فى ذلك الزمان ، بريطانيا وفرنسا ؟ ثم ... ماذا كان مصير أصحابها ، ومعهم أولئك الذين خرجوا من مصر مهاجرين إلى المجهول ؟

● إن مذكرة لاسكاريس المرفوعة إلى الحكومة البريطانية ، بالرغم مما توافر لها من ضمانات إجرائية ، لم يكن لها أى أثر أو صدى على أى مستوى . فقد أهمل أمرها تماما ، واكتفى مكتب وزير البحرية البريطانية بتحويلها « للإيداع فى محفوظات وزارة الخارجية » . هذا بالرغم من أن بريطانيا لم تكف ، منذ نجحت مع العثمانيين فى إخراج الفرنسيين من مصر ، عن السعى لمحاولة احتلالها أو إقرار نفوذها فيها . فقد بقى الأسطول الإنجليزى فى المياه المصرية وبقيت بعض القوات الإنجليزية فى مصر حتى سنة ١٨٠٣ . وفى الوقت نفسه بذلت بريطانيا جهودها الدبلوماسية مع الباب العالى لمنع وقوع مصر بالذات فى يد

فرنسا أو غيرها . ولجأت بريطانيا كذلك إلى استمالة عدد من المماليك الذين عادوا من سوريا مع القوات العثمانية إلى جانبها ، فتكون من هؤلاء — لا من الأقباط أو غيرهم من الأقليات — حزب موال للإنجليز بزعامة محمد بك الألفى . وقد سافر الألفى مع القوات الإنجليزية المنسحبة ، وبقى فى لندن مدة اتفق خلالها مع المسئولين البريطانيين على أن يمكنوه من تولى السلطة فى مصر مقابل منحهم بعض الامتيازات ، مثل حماية السواحل المصرية . غير أن حزب الألفى فشل فى تحقيق هذا المخطط ، واستقر الأمر فى مصر لمحمد على . وأخيرا وجهت بريطانيا حملتها المعروفة بقيادة فريزر لاحتلال مصر عام ١٨٠٧ ، ولكنها ردت على أعقابها . وظلت بريطانيا – كما نعلم – طوال معظم سنوات القرن التاسع عشر تعمل على احتلال مصر وتقاوم النفوذ الفرنسى فيها ، حتى نجحت فى احتلالها عام ١٨٨٢ .

وفى فرنسا لم يكن حظ مذكرتى لاسكاريس بأفضل من حظ مذكرته المطولة إلى الحكومة البريطانية . فلم يبد بونابرت ولا تاليران أدنى اهتمام بالرسالتين ولم يأخذا ما جاء فيهما مأخذ الجد ، وتم تحويلهما بدورهما إلى محفوظات وزارة الخارجية . وهذا أيضا بالرغم من جهود فرنسا المضادة لجهود بريطانيا فى محاولة الاستئثار بشىء من النفوذ فى مصر . فقد كان لفرنسا بدورها حزب من المماليك بزعامة عثمان بك البرديسى ، ولكن حظه لم يكن بأفضل من حظ حزب الألفى فى مواجهة نجم محمد على الصاعد . ومن خلال العلاقات مع حكومة محمد على نفسه حاولت فرنسا عن طريق تصدير الخبرة والثقافة لا الاعتماد على الاقليات ، أن تتسلل إلى مختلف المجالات فى دولة مصر الحديثة التى أقامها ذلك العاهل الكبير . ثم تتابعت محاولاتها فى عهد خلفائه حتى نجحت منافستها الكبرى فى احتلال البلاد أيام توفيق .

وعلى أية حال فقد اتفقت الدولتان فى محادثات الصلح على إعادة

مصر لحظيرة الدولة العثمانية . وتم إدماج هذا الاتفاق فى معاهدة الصلح النهائية التى وقعت فى أميان (Amiens) عام ١٨٠٢ . وخلال السنوات التى أعقبت انسحاب الحملة الفرنسية لم يدر فى خلد أى من الدولتين المتنافستين على مصر خاطر يتصل بتطوير ما فى بنية الحكم يحقق لونا من الاستقلال أو الرفاهية للشعب المصرى ، أو يرفع عنه شيئا من مظالم المماليك أو استبداد الحكم العثمانى ، كما جاء فى مشروع الاستقلال المزعوم .

● أما المهاجرون الذين أقلتهم الفرقاطة پالاس الى الشواطىء الفرنسية فقد كان مصيرهم التشتت والضياع . لقد أغفلت الحكومة الفرنسية أمرهم تماما ، ولم تستقبل منهم أحدا ، ولم يعرهم المسئولون أى اهتمام . وعاد نفر منهم لوطنهم بعد قليل ، وظل الباقون هناك نهبا للفقر والفاقة ، بل إن بعضهم — كما تثبت وثائق وزارة الخارجية فى باريس — لجأ الى السلطات الفرنسية مستجديا فمنحتهم الحكومة الفرنسية معاشا ، وانتهى أمرهم بأن ذابوا فى المجتمع الفرنسى [٤٠] . ولم يترك احدٌ منهم فى التاريخ ذكرا إلا الشاب القبطى « إليوس بقطر » ، الذى كان فى الثامنة عشرة عندما انضم إلى قافلة الراحلين عن مصر ، فقد تعلم إليوس الفرنسية وأجادها واشتغل بالترجمة والتدريس فى باريس نحو عشرين عاما تمكن خلالها من إعداد أول قاموس فرنسى عربى تم طبعه بعد وفاته [٤١] .

وأما فارسنا الدون كيشوتى ، النبيل البيدمونتى [٤٢] الحالم لاسكاريس ، فقد ظل — كما قال الأستاذ شفيق غربال — « يضرب فى بلاد الشرق سنين ، يجود ذهنه بالمشروع تلو المشروع ، أحيانا لإصلاح الزراعة فى بلاد القوقاز ولبنان ، وأحيانا لتدبير مستقبل الجبل السياسى أو لتسوية مشكلة الوهابية . وهو أينما حل يحوطه جو من الظنون والارتياب من جانب الرجال الرسميين ، وحظه الحزن والفاقه » [٤٣] .

وانتهى المطاف بالفارس المغامر إلى مصر ، حيث أخذ يتكسب بتعليم

اللغة الفرنسية للأمراء ، وبخاصة إسماعيل بن محمد على (الذى فتح السودان وهناك قتله نمر ملك شندى) . ثم مات لاسكاريس فى القاهرة عام ١٨١٧ فى ظروف مريبة . وقيل إنه مات مسموما على يد أحد رجال محمد على لأنه أقحم نفسه أكثر من اللازم فى المسائل السياسية . وهكذا كانت نهاية الرجل الخيالى المغامر ، الذى بدأ وانتهى كما وصف نفسه « صاحب مشروعات » .

وبعد ...

فهذه قصة المعلم يعقوب ، المصرى القبطى ، الذى عاش حياة امتدت ستة وخمسين عاما ، ذاق فيها لذة الغنى والترف ، وتمتع بالجاه والنفوذ ، وصار من زعماء طائفته المرموقين . ولكن سيرته فى الأعوام الثلاثة الأخيرة من حياته وحدها كانت حديث الناس فى أثنائها وبعد انقضائها . لقد كانت تلك الفترة الزمنية على قصرها حافلة بالأحداث التى تركت آثارا عميقة فى حياة البلاد . ومنذ بدايتها اختار يعقوب لنفسه نهجا واضحا لم يحد عنه ، ربط فيه نفسه بالحملة الفرنسية ومصالحها ومصيرها ، وتمادى فى هذا إلى أبعد حد ، حتى أنه وجد من المنطقى أن يرحل مع قوات الحملة بعد أن تهاوت أحلام قادتها ومنيت مشروعاتهم فى استعمار مصر بالفشل .

ولقد تناولت هذه الدراسة بكل موضوعية سيرة يعقوب منذ نشأته ، وتعرضت لمكونات شخصيته ، ثم ركزت على تلك الحقبة العسيرة العريضة رغم قصرها ، ففصلت القول فى سلوك يعقوب ومواقفه فى إطار المتغيرات التى لحقت وجه الحياه فى مصر إبانها ، وفى ظل الظروف التى صاحبت أحداث الحملة وتفاعلت معها . واعتمدت

فى هذا كله على عدد وفير من المراجع والوثائق .

وليس من العسير فى ضوء ما تقدم أن نحاول الإجابة عن السؤال الذى كان محور هذه الدراسة ، وهو : هل يعقوب خائن لقومه وبلاده ، باع نفسه للمحتل الغاصب وتفانى فى خدمة مصالحه ؟ أوهو – على النقيض – بطل وطنى وضع أول مشروع لاستقلال مصر ، وسبق به الحركة الوطنية المصرية بعشرات السنين ؟

ينبغى أن نقدر أولا أنه لم يكن قد تبلور فى مصر فى ذلك الوقت شعور وطنى خالص . لقد كان هناك إحساس عميق بالانتماء إلى هذه الأرض والاعتزاز بتراثها الحضارى المشترك من لغة وتقاليد وعادات ، ولكن على أساس أن مصر جزء من « دارالإسلام» يتعايش فوق أرضها شعب غالبيته من المسلمين مع أقلية من الذميين الذين حددت شريعة الإسلام حقوقهم وواجباتهم ، دون ما تعصب أو تطرف . ومن هنا فقد قاوم المصريون الحكم الفرنسى وثاروا عليه فى القاهرة ومختلف أقاليم الوجه البحرى والصعيد ، ولكنهم كانوا بوجه عام متقبلين للحكم العثمانى المملوكى بالرغم من مساوئه . وكانوا أحيانا ما يقاومون بالغضب والاحتجاج والسخط طغيان وال أو ظلم مملوك ، ولكنهم لم يقوموا بأية ثورات شعبية « وطنية » على شكل السيادة أو نظام الحكم .

ولم يشهد التاريخ طيلة ما يقرب من ثلاثة قرون قبل مجىء الحملة إلا محاولتين فرديتين للانتقاض على السيادة العثمانية أو الطغيان المملوكى أوهما معا ، كانت أولاهما فورة همام بن يوسف زعيم قبائل الهوارة بالصعيد ، الذى استقل بالمنطقة الممتدة من المنيا حتى حدود مصر الجنوبية حوالى عام ١٧٦٥ ، ثم كسر على بك الكبير شوكته وقضى على حكمه بعد أربع سنوات . وكانت المحاولة الثانية على يد على بك الكبير نفسه الذى كان شيخا للبلد ، أى زعيما لمماليك مصر ، وتمرد على سلطة الباب العالى واستقل بمصر عام ١٧٦٦ . ولكن ما لبثت هذه

المحاولة بدورها أن أجهضت بعد ما لايزيد على ستة أعوام . وقد أدرك بونابرت ذلك تماما منذ بداية حملته ، فحاول من خلال منشوراته إلى المصريين أن يضرب على وتر المشاعر الدينية فيؤكد حرصه على احترام الإسلام وتوقير علمائه والاعتراف بسيادة السلطان العثمانى « خليفة المسلمين » ولكن القائد المخاتل لم ينجح فى هذه المحاولة التى لم تخدع أحدا ، ولم تجد بيئة صالحة تؤتى فيها ثمارها . وكل دارس لتاريخ مصر الحديث يعلم أن الشعور القومى المصرى ، أى الشعور بالانتماء الوثيق إلى هذا « الوطن » ذى المقومات المعروفة المحددة ، بكل أبعاد هذا الانتماء ، ظل ممتزجا امتزاجا قويا بالشعور الدينى ، أى بالانتماء الى دار الإسلام الواسعة ، بكل ما يفرضه هذا الانتماء من التزامات ، حتى ساعدت الظروف السياسية والاجتماعية على أن يبدأ تبلور الشعور « الوطنى » بالمعنى السياسى الحديث بعد عهد الحملة بعشرات السنين .

وفى ظل تلك الظروف ، كيف نقوم مسلك المعلم يعقوب ؟ إنه لم يكن مجرد خائن لقومه وبلاده ، فوصفه بذلك هو من قبيل إطلاق الأحكام العامة التى تفتقر إلى التحديد . والأدق أن يوصف بأنه منشق على نظام الحكم القائم وبنيته رافض له . ولكن ما أساء إلى موقفه أبعد الإساءة أن هذا الانشقاق أو الرفض اتخذ من البداية بعدا طائفيا مذموما ، فضلا عما امتزج به من طموحات شخصية .

لقد رفض يعقوب إذ واتته الفرصة أن يستمر فى الخضوع لنظام الحكم الإسلامى ، الذى كان فى رأيه يمثل طغيان الأغلبية على الأقلية ، وفى ظله تضطهد طائفته القبطية وتمتهن حقوقها . وانشق يعقوب على أمته فصانع -كما رأينا- الحاكم الفرنسى منذ البداية وذهب فى مصانعته إلى أبعد مدى . وكان له من رفضه وانشقاقه موقف لم يحد عنه ، بل راح ينتهز كل فرصة لإثباته وتأكيده ، وهو موقف اتسم بنظرة طائفية متطرفة كانت لها مظاهرها التعصبية الحادة .

أملى هذا الموقف على يعقوب أن يحارب فى صف الفرنسيين ضد المماليك الذين عمل من قبل فى خدمتهم ، وأن يتحمس لتكوين الفيلق القبطى ويشترك به فى عدة عمليات مع الفرنسيين ضد الوجود العثمانى فى أواخر عهد الحملة . ولقد رأينا كذلك كيف كانت تصرفاته ، من مركز القوة ضد مواطنيه المسلمين .

لقد ساند يعقوب بكل ثقله وإمكاناته الغزاة الفرنسيين وعاونهم فى إحكام قبضتهم على مصر ، واحتمى بقوتهم ، وحسب أن حكمهم بداية لمرحلة جديدة سوف تتغير فيها موازين القوى ويصبح للأقلية القبطية تحت الحماية الفرنسية مكانة متفوقة تتناسب وما قدمه هو وفيلقه لسلطات الحملة من خدمات . ولقد رأينا فى سيرة يعقوب خلال سنوات الحملة الثلاث كيف امتزج لديه الطموح الذاتى والمطامع الشخصية بتلك النظرة المستقبلية غيرالمتبصرة . وعندما بات مصير الحملة فى مصر واضحا آثر يعقوب الانسحاب من الساحة ، ولم يلبث أن وافاه أجله .

أما أحاديث يعقوب على ظهر الفرقاطة « بالاس » مع قبطانها الإنجليزى ، فلا تعدو أن تكون من قبيل الأحاديث العفوية العابرة . وقد أوضحت هذه الدراسة دور لاسكاريس فى نقلها وصياغتها حتى تحولت إلى مذكرات كان مصيرها الحفظ فى أضابير وزارتى الخارجية فى لندن وباريس .

ومن التجاوز الشديد ، بل ومن الشطط اللاموضوعى أن ننظر إلى هذه المذكرات أو الى شق منها كما فعل بعض المؤرخين ، باعتبارها أول مشروع لاستقلال مصر ، وأن ننسب هذا المشروع إلى الجنرال يعقوب ، وأن يتطرف البعض فيرفع يعقوب إلى مصاف الأبطال الوطنيين . إن يعقوب لو كان قد فكر بالفعل فى مشروع لاستقلال البلاد لقدمه إلى قواد الحملة فى تلك الفترة الحافلة التى سبقت جلاء

القوات الفرنسية . ولاشك أن صلة يعقوب بهؤلاء القواد وما توافر لديه عندئذ من إمكانات كانت تسمح له بذلك فى الوقت المناسب . بل إنه كان يستطيع أن يقدم ذلك « المشروع » إلى الجنرال بليار أو غيره على ظهر السفينة بدلا من الثرثرة فيه مع القبطان الإنجليزى . ولعل التناقض الواضح بين فكرة الاتصال بالمسئولين الإنجليز لتحقيق ما سمى بمشروع الاستقلال وبين الاتصال فى الوقت نفسه بالمسئولين الفرنسيين ، ليؤكد ما سبق أن خلصت إليه الدراسة من نسبة ما حدث إلى لاسكاريس ، الرجل الخيالى الحالم الذى عاش ومات « صاحب مشروعات » .

لقد رفض الدكتور لويس عوض فكرة أن يكون لاسكاريس وراء تلك المذكرات وجزم بنسبتها إلى يعقوب ... الذى كان على رأس مجموعة من « المنفيين المصريين » تمثل « وفدا مصريا » . وذهب الدكتور لويس عوض فى الإشادة بيعقوب وبمشروعه والتحمس له مذهبا انفرد به دون سائر من كتبوا عنه من المؤرخين والباحثين ، إذ وصفه بأنه يمثل مدرسة فى الوطنية والكفاح القومى تعادل — فى تلك الأيام — مدرسة عمر مكرم ومن إليه ، وإن اختلفت سبيل كل منها واختلف مذهبه فى الفكر والفعل . وقال إن يعقوب وفيلقه القبطى نموذج شائع فى عهد بونابرت ، وقارن بينه وبين من تطوعوا فى صفوف الجيش الفرنسى من الأوربيين إيمانا منهم بمبادىء الثورة الفرنسية . ثم وصف « مشروع استقلال مصر الذى وضعه يعقوب والإخوان الاستقلاليون » بأنه موضوعى ووطنى ، وأنه يتفق مع مصالح البلاد الأساسية . وختم الدكتور لويس عوض مناقشته الطويلة بأن رفع يعقوب إلى مصاف أبطال مصر وقادتها العظام ، فاعتبره حلقة فى سلسلة الزعماء الذين شاركوا بجهدهم فى الكفاح من أجل استقلال البلاد من على بك الكبير إلى جمال عبد الناصر... » ! ! (٤٤)

والغريب أن الدكتور لويس عوض تعمد فى حديثه المطول ودفاعه

الحار عن يعقوب ومشروعه أن يغفل الإشارة إلى مذكرتى لاسكاريس المرفوعتين إلى بونابرت وتاليران واللتين وقعهما نمر افندى ، مع أنه رجع إلى بحث الأستاذ شفيق غربال الذى أورد نص هاتين المذكرتين وناقشه فى أكثر من موضوع ، وليس هذا من الأمانة العلمية فى شىء . ولو كانت مناقشة الدكتور قد امتدت إلى هاتين المذكرتين لوفر على نفسه وعلى قرائه الكثير مما قدمه تمجيدا ليعقوب ومشروعه ، فمجرد وجود مشروعين متناقضين بهذه الصورة يكفى — كما أوضحنا — لإلقاء الضوء على أهم أحداث تلك « المسرحية البحرية » التى أسلفنا عرض مشاهدها ، ولتقويم أدق لكل من يعقوب ولاسكاريس وأفكارهما عن مصر ومستقبلها .

والأمر الذى لاجدال فيه أنه اذا كان المعلم يعقوب قد نزع ، إبان الحملة الفرنسية فحسب ، إلى سلخ مصر عن الدولة العثمانية ، فقد كان هذا النزوع من خلال نظرة ضيقة أملتها عاطفة طائفية لا وطنية فيها ولا بطولة ، وغذاها طموح شخصى يستهدف تحقيق منافع ذاتية . والتاريخ يسجل لنا على أية حال أن يعقوب لم ينفرد وحده فى تلك الايام بمثل هذا النزوع الذى يغذيه طموح شخصى والذى لا وطنية فيه ولا بطولة ، بل نحا هذا المنحنى غيره من شخصيات مصر البارزة ، وإن خلا نزوعه من العاطفة الدينية .

المملوك العميل

لقد رأينا كيف أن مراد بك ، الذى فر إلى الصعيد أمام قوات جيش الحملة بعد أن عجز هو وزميله إبراهيم بك عن مقاومة الغزو الفرنسى على مشارف القاهرة ، ظل يناوىء ويناوش قوات ديسيه المتوغلة فى الوادى الضيق قبل أن يوقع اتفاقية « سلام وتحالف » مع الجنرال كليبر وقد قضت هذه الاتفاقية بأن يحكم مراد بك الصعيد الأقصى باسم الجمهورية الفرنسية فى مقابل التزامات معينة (شكل ٧) .

إن مراد هذا — الذى أطلق اسمه على شارع من أهم شوارع الجيزة ! قد تعاون مع المحتل الفرنسى بعد هذه الاتفاقية إلى أبعد حدود التعاون . وكانت صلته بسلطات الحملة فى القاهرة صلة التابع المخلص الأمين . ولم يكن أقل من يعقوب ولاء للفرنسيين وعملا على خدمة مصالحهم . ومن مظاهر ذلك ما يثير أمرّ مشاعر الأسى والأسف . فعقب اغتيال الجنرال كليبر مثلا بعث مراد بك برسالة تعزية إلى قائد الحملة الجديد الجنرال منو (وهى من الوثائق التى لم يسبق نشرها) [٤٥] . وقد أعرب مراد فى هذه الرسالة عن أسفه العميق على هذا الحادث واستنكاره له ، ووصف مرتكبه بأنه « خاين وقليل

شكل (٧) مراد بك



المروءة » . ثم ذكر أنه حصل له غاية الفرح والسرور بتولى مصر قيادة الحملة ومسئولية الحكم . وأكد أن العلاقة بينه وبين السلطات الفرنسية ينبغى أن تثبت وأنه « على المحبة والشروط على ما هو عليه حكم الأول ، ... نسأل الله تزيد المحبة والتوفيق » . ولم يجد مراد بك بعد هذا بأسا — مع أنه يكتب رسالة تعزية — فى أن يذكر الحاكم الجديد بملتمس سبق أن أرسله إلى القاهرة مع أحد أتباعه (الأمير إبراهيم كتخدا) يعتذر فيه عن تقصيره فى إرسال كامل مستحقات الحكومة المركزية فى القاهرة مما يجبيه من الأموال الأميرية : « وحضرتكم تتحملونا وتقبلوا عذرنا فى سنة تاريخه لأن حاصل لنا تعب من قبل المعايش والأمر إلى الله تعالى وإلى حضرتكم ... » . وقد عزز مراد بك رسالته هذه فبعث بصور بعض الأسرى منها إلى سائر جنرالات الحملة .

ولعل فى عرض حقائق أخرى وضرب مزيد من الأمثلة لتوضيح مدى توثق الصلة بين مراد والفرنسيين ما يساعد على فهم أرحب لموقف يعقوب وحكم أصدق على ما حدث من تعاون وارتباط بين مسئولى الحملة وبعض من نظرائهم حكام مصر من أبناء البلاد وغيرهم . فمما تجدر ملاحظته أن اتفاق كليبر ومراد كان فى الواقع تحقيقا لفكرة نادى بها بونابرت فى بداية عهد الحملة . وقد فوض لمحاولة تحقيقها روزيتى (Rosetti) قنصل النمسا فى الاسكندرية وقتئذ (٤٦) ، تماما كما كان إنشاء الفريق القبطى وفرقة الأروام تجسيدا لبعض خطط ذلك القائد الداهية . ويلاحظ كذلك ، وهذه نقطة بالغة الأهمية ، أنه كان من أغراض تلك الاتفاقية الموقعة مع مراد بك تسليم مصر إليه عند خروج الفرنسيين منها . وقد أعرب مراد عن أمله فى تملك مصر فى رسالة منه إلى الجنرال كليبر قبل عقد الاتفاقية ، فقال إنه « يرغب فى أن ينضم إلى الفرنسيين ويتحالف معهم ... وإنه يطلب الاستقرار فى جزء من البلاد ، حتى إذا جلا الفرنسيون عن مصر استطاع مع ما يمدونه به من نجدات أن يستولى على هذه البلاد التى هو صاحبها ولا يستطيع غير الفرنسيين

حرمانه منها ... » (٤٧) .

ويؤكد هذا الموقف من مراد مؤرخو الحملة الثقات من الفرنسيين وغيرهم . فيقول البارون أرنوف (Arnouf) مثلا الذى أرخ للجنرال كليبر ، إن مراد طمع فى حكم مصر تحت السيادة الفرنسية لخوفه من أن تؤدى عودة السيادة العثمانية إلى القضاء على قوة المماليك ، وإنه كان يسمى نفسه فى الصعيد « السلطان الفرنسى » . ويقول ريجو إن الاتفاقية التى وقعها مراد مع كليبر تدل على بعد نظر سياسى ، لأنه فى الوقت الذى يغادر فيه الفرنسيون مصر — وكان ذلك متوقعا — سيكون من السهل عليهم أن يخلفوا فيها مراد بك ملكا على البلاد كما كان يأمل ، وبذلك يمكن الحيلولة دون وقوعها تحت حكم الإنجليز . وقد ردد مراد نفسه هذا المعنى مرة أخرى فى رسالة بعث بها إلى الجنرال دونزلو (Donzelot) — أحد كبار قواد الحملة — بعد عقد اتفاقيته بشهرين (٤٨) .

وفى تلك الأيام المضطربة التى حفلت بكثير من الأحداث والتى عانى فيها المصريون من مختلف ألوان الشدائد والمحن ، والتى بدأت بعقد اتفاقية العريش وانتهت بانتصار كليبر فى موقعة عين شمس على القوات العثمانية والإنجليزية المشتركة ، كان مراد بك كما كان المعلم يعقوب من أكبر الدعامات التى استند إليها ظهر الحملة الفرنسية فى مواجهتها للزحف العسكرى من الخارج وللثورات الشعبية من الداخل . لقد كتب « جالان » (Galland) و « برتييه » (Berthier) وهما من رجال الحملة أن مراد بك قدم للفرنسيين فى أثناء ثورة القاهرة الثانية (بعد نقض الصلح مع العثمانيين) المؤن والذخائر وسلمهم العثمانيين اللاجئين له ، وأرسل لهم المراكب المحملة بالأحطاب والمواد الملتهبة لإحداث الحرائق اللازمة لإخماد الثورة التى كانت قد اشتعلت كذلك فى مناطق أخرى غير القاهرة . وكان بفضل هذه المؤن والمهمات والمواد

التى زود بها مراد الفرنسيين أن استطاعوا فعلا إخضاع الثورة بعد أن أحرقوا حى بولاق وغيره (٤٩) . ويقول الجبرتى فى هذا الصدد أيضا إن مراد بك « عند توجهه إلى الصعيد بعد انقضاء الصلح أخذ ما جمعه درويش باشا (العثمانى) من أغنام وخيول وميرة وكان شيئا كثيرا فتسلم الجميع منه وعدى درويش باشا الى الجهة الشرقية متوجها إلى الشام وأرسل مراد بك جميع ذلك للفرنساوية بمصر (اى القاهرة) (٥٠) » . هذا فى الوقت الذى كان يعقوب — كما رأينا — يساند فيه الفرنسيين عسكريا بقتاله لمن تسلل إلى القاهرة من المماليك والعثمانيين ، ويساعدهم كذلك فى تحصيل ما فرضوه على المصريين من مغارم .

وبينما منح قادة الحملة ليعقوب رتبة فى الجيش الفرنسى ، فإنهم كانوا يعتبرون مراد مواطنا فرنسيا . وقد حدث فى أول عهد منو ، قبل بدء العمليات الحربية بين الفرنسيين والقوات المشتركة ، أن تدخل مراد بك محاولا التوسط بين العثمانيين وقيادة الحملة لإجراء مفاوضات جديدة ، وبعث بنائبه عثمان البرديسى إلى القاهرة ومعه رسالة بهذا المعنى . ولكن منو رفض هذه المحاولات وأدان بشدة اتصال مراد بالمعسكر العثمانى ، وقال إن مراد بك هو أحد مواطنى الجمهورية (un des membres de la Republique) ويجب عليه أن يهتم بشئونه وألا يتجاوز حدوده (٥١) .

وكما عكس الجبرتى شعور المصريين تجاه شطط يعقوب وتطرفه فى التعاون مع الفرنسيين بكثير من الامتعاض والسخط ، فكذلك فعل فى مناسبة وفاة مراد (خلال عهد منو) فأفاض فى ذكر مظالمه ، وذكر بكثير من الاستنكار ما قدمه للفرنسيين من خدمات ، ثم قال « إنه كان من أعظم الأسباب فى خراب الإقليم المصرى بما تجدد منه ومن مماليكه وأتباعه من الجور والتهور »(٥٢) .

ولقد نظر الفرنسيون إلى محاولات البعض التقرب إليهم وبسط اليد

للتعاون معهم أو محاولتهم هم لاحتواء هذا « البعض » ومد جسور الصداقة إليهم .. نظروا إلى كل ذلك نظرة واقعية مكيافيللية لها غاية محددة واحدة ، هى مصلحة الجمهورية الفرنسية ، مهما اختلفت الوسائل وتنوعت السبل لتحقيق هذه الغاية . وكانت هذه النظرة فى الوقت ذاته واعية متبصرة . إنهم رموا شباكهم على مراد وأفلحوا فى اصطياده ، ورحبوا بتعاونه وتفانيه فى خدمة مصالحهم ، ولم يجدوا فى تطلعه إلى سلخ مصر عن الدولة العثمانية وطموحه إلى التربع على عرشها فى ظل حمايتهم أمرا غير عادى أو لا يدخل فى دائرة الممكن . لقد كانوا يعلمون جيدا أن السيادة العثمانية على مصر هى فى حقيقتها اسمية روحية ، وأن الحكم الفعلى للمماليك الذين قال عنهم بونابرت قائد الحملة فى منشوره الأول إلى المصريين إنه حضر للقضاء عليهم . وكانوا يعلمون كذلك أنه ليس غريبا أن يتطلع رجل كمراد بك إلى حكم مصر منفردا ، فقد كان عند قدوم الحملة يتقاسم وزميله إبراهيم بك منصب مشيخة البلد ، أى زعامة طائفة المماليك التى كانت تمثل رأس السلطة التنفيذية فى البلاد . وكانوا يعلمون أيضا أن المصريين اعتادوا على حكم المماليك مع ما يقترن به من مظالم ومفاسد ، وليس من العسير أن يصلوا ما انقطع بعد اضطرار الفرنسيين إلى الجلاء بقواتهم عن البلاد . ومن هنا أيدوا فى اتفاقهم مع مراد فكرة تنصيبه بحمايتهم سلطانا أو ملكا على مصر بعد جلائهم ، واعتبروه منذئذ مواطنا فرنسيا .

ويذكر لنا الجبرتى اهتمام الفرنسيين غير العادى بخبر وفاة مراد المفاجئة بالطاعون قبل توقيع بليار لاتفاقية الجلاء عن القاهرة بنحو شهرين . فقد أرسلوا « جوابات إلى الأمراء المرادية يعزونهم فى أستاذهم (أى زعيمهم) ، بل وتدخلوا كذلك فى تعيين من يخلفه فى زعامة المماليك ، فبعثوا « تقريرا إلى عثمان بيك الجوخدار .. بأن يكون أميرا ورئيسا على خشداشينه (أى زملائه) وعوضا عن مراد بك »(٥٣) ونحن نعلم أن زعامة مماليك مراد الموالين لفرنسا آلت فيما بعد إلى عثمان البرديسى ،

وأن الإنجليز كذلك استمالوا لتأييدهم فريقا آخر من المماليك بزعامة محمد الألفى ، هذا بينما كان محمد على يصارع مختلف القوى متلمسا طريقة للانفراد بحكم مصر من خلال الشرعية العثمانية .

أما علاقة الفرنسيين بالأقباط وزعمائهم فكانت أمرا مختلفا تماما . لقد لجأت اليهم سلطات الحملة لمساعدتها فى تدبير الشئون المالية للبلاد بحكم ما يملكونه من خبرة طويلة فى هذا الصدد ، وما توافر لديهم من بيانات ومعلومات تتصل بالدخل العام ومساحة الأراضى الزراعية وتفصيلات ما تقرر عليها من ضرائب وما إلى ذلك . وزاد اعتمادهم على العنصر القبطى فى جباية الأموال وحسابها بعد أن تبين تقصير موظفى الإدارة الفرنسية وإهمالهم . ومع هذا فإن أولئك الجباة والصيارفة لم يكونوا عند حسن ظن الفرنسيين بهم . ويجمع مؤرخو الحملة ، نقلا عن وثائقها ، على أن المحصلين نهبوا أموال البلاد ، واشتدوا فى عسفهم وجورهم ، وغلوا فى استباحتهم أموال الناس وعبثهم بكرامة دافعى الضرائب من الفلاحين وغيرهم . وتحفل كتابات هؤلاء المؤرخين بكثير من الأمثلة الصارخة على ذلك . ولقد بذلت حكومة الحملة وبخاصة فى عهد منو جهودا كبيرة لمحاولة تغيير هذه الأوضاع والتخلص من هيمنة أولئك الجباة ، بإعادة التنظيم الإدارى ومراجعة تصرفات الموظفين والدقة فى فحص الحسابات ... الخ .

وقد اتخذ عبد الله منو فى هذا الصدد موقفين حاسمين قلبا موازين العلاقات بين سلطات الحملة والأقباط :

١ — فعندما أبلغه إستيف (Estève) مدير الشئون المالية للحملة باكتشافه لاختلاسات جسيمة من الأموال العامة أمر بالقبض على أنطون أبى طاقية وملطى وألزمهما برد المبالغ التى اختلسها الجباة الذين يعملون تحت إشرافهما . أما يعقوب فأفلت من هذا المصير إذ تركزت جهوده فى التعاون مع الفرنسيين بعد كليبر فى

الجانب العسكرى ، فانصرف إلى حد كبير عن النشاط المالى وما جرته عليه جباية المغارم والفرد هو وأتباعه من احتكاكات ومصادمات مع المواطنين . وتعكس عريضة تظلم من ملطى وأنطون إلى القائد العام (لم يسبق نشرها) أثر ما اتخذه منو إزاءهما من إجراءات.إنهما يشكوان ما وقع بهما قائلين « .. وقد زاد علينا الحال حتى ظهرنا من جملت (كذا) العصاة على أوامركم .وقد **قاصصتمونا لذلك** فاقتضى الحال أن نستغيث بكرسيكم تعينوا بأمركم اناسا من أهل الفطنة خالين الغرض ممن ترونهم أنتم يقعدوا فى مابيننا (كذا) **ويتبصروا فى حال** حسابنا .. » ثم يستشهدان بزميلهما يعقوب ، ويشيران إلى أنه لم يستطع الشفاعة لهما أو الوساطة من أجلهما : « ثم إن هذا أمر يدركه أيضا خادمكم الخاص حضرة الجنارال (كذا) يعقوب ومع ذلك لأجل طبعه الوديع محتار كيف يتصرف فى مثل هذه الدعوة .. » (شكل ٩) .

٢ — وعندما كون منو ديوانا جديدا فى أكتوبر ١٨٠٠ عدل عن تعيين ممثلى الأقليات فى هذا الديوان كما كان عليه الوضع منذ أنشأ بونابرت الدواوين . وقال فى المادة الثالثة من المرسوم الخاص بإنشاء هذا الديوان « فلابد من إقامة ديوان بمصر مؤتلف من جماعة العلماء أو من أناس آخرين مسلمين الأوفر امتداحا بالفضل والمعرفة والمنزهين عن محبة المال ... » . وقال الجبرتى عن هذا الديوان إنه أنشىء « على نسق الأول من تسعة أنفار متعممين لاغير وليس فيهم قبطى ولا وجاقلى ولا شامى ولاغير ذلك .. » . وكان الجبرتى نفسه أحد الأعضاء التسعة فى هذا الديوان » (٥٤) .

ومؤدى هذا كله أنه كان من المستبعد تماما أن يفكر الفرنسيون وهم يخططون لمستقبل علاقاتهم بمصر فى الاعتماد على زعيم من زعماء الأقلية

القبطية ليتولى السلطة فى صالحهم أو تحت حمايتهم ، بعد أن يضطروا إلى إجلاء قواتهم عن البلاد ، مهما كان ولاء هذا الزعيم لهم ومهما بالغ فى خدمة مصالحهم .

لقد أفلح الفرنسيون — كما رأينا — فى اصطناع بعض المماليك ، ولكن التطورات التاريخية قضت على قوة المماليك « المصرية » بمختلف أحزابها واتجاهاتها . وحاول الفرنسيون كذلك أن يصطنعوا — أو يصانعوا — علماء الأزهر بوصفهم قادة الشعب وموضع احترامه وإجلاله ، وتقربوا إليهم بشتى وسائل الإغراء والتهديد ، حتى أرغموهم أحيانا على أن يوجهوا منشورات إلى المصريين أو يبعثوا برسائل إلى قادة الحملة ، تجعلهم يبدون فى صورة المؤيدين للحكم الفرنسى والموالين لمبادىء الثورة الفرنسية العظيمة ! ولكن هذه المحاولات كان مآلها المتوقع هو الفشل الذريع ، ولم تستطع أن تهز من مكانة هؤلاء العلماء أو تغير من توقير الناس لهم وإيمانهم بقيادتهم . أما اصطناع يعقوب أو من إليه من زعماء الأقلية فكان أمرا مرحليا وبصورة محدودة فى أثناء حكمهم للبلاد . ولكن اصطناعه لينفذ لهم مخططا آجلا أو ليعينهم على تحقيق غاياتهم ، إنما هو أمر لم يكن ليخطر لهم على بال ، لأنه كما قال أحد مؤرخيهم « أشبه بالمراهنة على الحصان الخاسر » .

* * *

وانطوت صفحة من تاريخ مصر لم تزد مساحتها الزمنية على ثلاثة أعوام ، ولكنها حفلت بالكثير من الأحداث والمتغيرات . وانقشع عن البلاد ظلام الاستعمار الفرنسى ، وأفاقت مصر من صدمتها وما خلفته من عبر ودروس لتستأنف مسيرتها عبر حقب التاريخ ، ولتصبح بعد قليل أمة ناهضة موحدة تبنى دولة حديثة ، وتتبلور على مر السنين مشاعرها الوطنية الخالصة ، وتتأكد قوميتها الذاتية وانتماءاتها الطبيعية ،

ولتشق طريقها بمسلميها وأقباطها نحو التقدم والنماء ، تصارع كدأبها كل ما رزئت به من محن ، وتقاوم فى بسالة ما نكبت به من احتلال آخر جثم على صدرها عشرات السنين ، ولتضرب بشعبها العظيم وأبطالها الخالدين أروع الأمثلة فى الوطنية والكفاح ، ولتبهر العالم بثورة ١٩١٩ التى اعتنق فيها الهلال والصليب فى وحدة لم يسبق لها أو يلحق بها نظير ، ولتفخر بأبنائها وما يقدمون لها كل يوم من عطاء وفداء .

هوامش

(١) عبد الرحمن الجبرتى « عجائب الآثار فى التراجم والاخبار » جـ ٣ ص ٤٦ .

(٢) المرجع السابق ، جـ ٣ ص ٤٧ .

(٣) رمزى تادرس ، مشاهر الأقباط ، جـ ٣ ص ٢٤ — ٢٥ . انظر كذلك : يعقوب نخلة رفيلة ، تاريخ الأمة القبطية ، ص ٢٨٩ — ٢٩١ .

(٤) Georges Rigault, Le Général Abdallah Menou et la Dernière Phase del'Expéditiond' Egypte, pp. 113-114

(٥) نقلا عن : La Jonquière, C.De, l'Expédition d'Egypte, III, p. 510

(٦) الجبرتى ، جـ ٣ ، ص ١٠١ .

(٧) رزوف حبيب . يعقوب حنا ، صور من تاريخ القبط ، ص ٣٠٨ .

(٨) الجبرتى ، جـ ٣ ، ص ١١٣ .

(٩) المرجع السابق ص ١١٤ .

(١٠) المرجع السابق ص ١١٨ — ١١٩ .

(١١) انظر: شفيق غربال ، الجنرال يعقوب والفارس لاسكاريس ، ص ٢٠ .

(١٢) Gaston Homsy, le général Jacob et l'Expédition de Bonaparte وجاستون حمصى فرنسى من أصل سورى مصرى، ويتصل نسبه بيعقوب نفسه .

(١٣) شفيق غربال، مرجع سابق، ص ٢٠ .

(١٤) لويس عوض ، تاريخ الفكر المصرى الحديث ، جـ ١ ، ص ١٨١ .

(١٥) Rigault, op. cit., p.78.

(١٦) الجبرتى ، جـ ٣ ، ص ١٢١ .

(١٧) انظر : محمد فؤاد شكرى ، الحملة الفرنسية وظهور محمد على ، ص ٣٤٧ ، ٣٥٢ .

(١٨) شفيق غربال ، مرجع سابق ، ص ٢٣ — ٢٤ .

(١٩) الجبرتى ، جـ ٣ ، ص ١٧١ .

(٢٠) شفيق غربال مرجع سابق ص ٢٢ .

(٢١) الجبرتى، جـ ٣ ص ١٤٢ .

(٢٢) الجبرتى، جـ ٣ ص ١٨٨ .

(٢٣) الجبرتى ، ج٣ ، ص ٢٠٥

(٢٤) Gaston Homsy, op. cit, p.115.

(٢٥) جاك تاجر ، حركة الترجمة بمصر خلال القرن التاسع عشر ، ص ١٤٠ — ١٤١ . ويتضمن هذه الترجمة مخطوط مودع بدار الكتب المصرية ، بعنوان « الأمير فى علم التاريخ والسياسة والتدبير » .

(٢٦) Mémoires du Conte Belliard, t. III, p. 213.

(٢٧) الجبرتى ، جـ ٣ ، ص ١٩٦ .

(٢٨) المرجع السابق ، ص ٢٠٤ .

(٢٩) المرجع السابق ، ص ٢٠٠ .

(٣٠) المرجع السابق ، ص ٢٠٤ .

(٣١) المرجع السابق ، ص ٢٠٧ .

(٣٢) Rousseau, M.F., Kléker et Menou en Egypte, p. 333.

(٣٣) Kléber شفيق غربال ، مرجع سابق ، ص ٣٢

(٣٤) انظر : George Douin, l'Egypte Endependante, pp. 1-3.

(٣٥) G. Homsy, op. cit., p. 141. وانظر كذلك : شفيق غربال ، مرجع سابق ، ص ٤٨ .

(٣٦) انظر : Mercure de France, 15 Juin, 1924.

(٣٧) لويس عوض ، تاريخ الفكر المصرى الحديث ، جـ ١ ، ص ٢٠١ .

(٣٨) لويس عوض ، المرجع السابق ، ص ١٨٨ .

(٣٩) شفيق غربال ، مرجع سابق ، ص ٣٨ .

(٤٠) توجد بعض عرائض الاستجداء من المهاجرين المصريين فى وثائق وزارة الخارجية الفرنسية . ويبدو أن المعاشات التى أجرتها الحكومة الفرنسية على المهاجرين المصريين استمرت تصرف لورثتهم . فعلى سبيل المثال ظل « جبريل إبراهيم » ، وهو حفيد أخت يعقوب ، يصرف معاشه حتى وفاته فى عام ١٨٧٨ (انظر : G. Homsy, op.cit., p. 67) .

(٤١) يبدو أن هذا الشاب كان الوحيد من شباب الأقباط الذين اصطحبهم الفرنسيون ليتعلموا الفرنسية ويعملوا فى جهاز الحكم الجديد ، فلم تشر المراجع المعاصرة للحملة إلا إلى اسمه . فذكرت أنه اشتغل بالترجمة لبعض رجال الجيش . عاش إليوس فى فرنسا نحو عشرين عاما عمل فيها مترجما بوزارة الحربية ، حيث عهد إليه بترجمة بعض الوثائق العربية للحملة إلى الفرنسية ، وكذلك شارك العلماء الذين صنفوا كتاب « وصف مصر » فى تحقيق الأسماء العربية بخارطاته ، ثم عمل مدرسا للعربية العامية بمدرسة اللغات الشرقية بباريس . وكان قد ألف قاموسا عربيا فرنسيا ، عنى بمراجعته ونشره بعد وفاته المستشرق « كوسان دى برسيفال : Caussin de Perceval » ، الذى خلفه فى

التدريس . وقد طبع هذا القاموس بعد ذلك عدة مرات ، بعضها فى مصر بتحقيق عدد من خريجى مدرسة الألسن فى عهد اسماعيل . انظر : أحمد حسين الصاوى ، فجر الصحافة فى مصر ، ص ٢٦٥ - ٢٦٦ ؛ وكذلك : شفيق غربال ، مرجع سابق ، ص ٣٩ .

(٤٢) يرجع أصله الى اقليم بيدمونت (Piedmont) الإيطالى ، الذى يقع على سفوح جبال الألب متاخما لحدود إيطاليا مع فرنسا وسويسرا .

(٤٣) شفيق غربال ، مرجع سابق ، ص ٤٠ .

(٤٤) لويس عوض ، مرجع سابق ، ص ٢٠٧ - ٢٠٩ .

(٤٥) مؤرخة ١٥ صفر ١٢١٥ (يوافق ٨ يوليو ١٨٠٠) .

(٤٦) محمد فؤاد شكرى ، مرجع سابق ، ص ٣٤٢ .

(٤٧) المرجع السابق ، ص ٣٤٠ .

(٤٨) Rigault, op. cit., p. 75 .

(٤٩) محمد فؤاد شكرى ، مرجع سابق ، ص ٣٣٤ - ٣٣٥ .

(٥٠) الجبرتى ، مرجع سابق ، جـ ٣ ، ص ١١٨ .

(٥١) Pigault, op cit., p. 289 .

(٥٢) الجبرتى ، مرجع سابق ، جـ ٣ ، ص ١٧٩ .

(٥٣) الجبرتى ، مرجع سابق ، جـ ٣ ، ص ١٦٤ .

(٥٤) الجبرتى ، مرجع سابق ، جـ ٣ ، ص ١٣٧ - ١٣٨ .

ملاحق

ملحق رقم (١)

نص قصيدة يعقوب فى رثاء الجنرال ديسيه[١]

إنا لله وإنا اليه راجعون

الحمد لله محرك آلات الألسن الأوانس ، بأنغام اللغات الدوامس [٢] ، وكاشف الغطاء الدلامس [٣] ، عن الآثار الدوارس . نحمده حمدا وشكرا لائقا بإله مبدع وخالق ، بارىء المبرورات والخلائق ، مكوّر الأرض والسموات ، يصور الأحياء والأموات ، مميز النفائس من الخسائس . فلا إله غيره ، ولا خير إلا خيره وهو المالك والسايس آمين .

وبعد ، فهذا دعاء جليل سديد ، به ننتحب وفات عزيزه ، الجنرال دامّه صاحب الأمير يعقوب ، سارى عسكر القبط الجديد . فيقول ....

أذرفنا على ذكر الحبيب دموعا
سكرنا بها ليوم البعث والحشرِ
حبيبٌ وقد ذاع صيته أبدا
بطلى وقد عرف فى سائر القطرِ

فتلألأت شجاعته وعقله ثم فطنته
وشرح احتقاره الدنيا بالنظم والنسرِ[٤]
وقد فاز بها على المماليك إجمالا
ظافر بأرقايهم[٥] نصرا بالعز والقهرِ
وأخضع تشامخ جماعة البربـــر
مروّضا أخلاق أهل إقليمنا المصرِ
بل وأهل تيبايس[٦] المثمرة ومن
كان قاطنا بالبر ثم والقفـــرِ
فاعجب بمن كان محبوبا ثم مرغوبا
حتى وممن كادهم بالحرب والقهرِ
دامّه فاتح بلادنا بناحية قبلى
يضرب ويشفى ولا يدنو إلى الغدرِ
صنديد مجاهد وخصم محارب ولكنه
طبيب مداوى الجراح بالزيت والخمرِ
فآها على ناصرى دامّه ووا أسفى
على اصطحابى به لو قدر القدرِ
فكنت أرغب وجودى بميدانى مارنجوا[٧]
كما رافقته قبلا بصعيدنا المصرى
فكنت أرجوا وجودى لمعاونة عِزّى
كما صاحبته قبلا بالعز والنصرِ
فموتى عنه فداءً كان يغنيه
عن فقد حياة مفيدة ذكرها دهرِ
أموت عن من حياته دوامها نفع
ودوامها لخير عام والفخر والظفرِ
ولكنه وإن مات فهو حىّ وما
زال ذكره من دهر إلى دهر

ولم يزل بفكرى مخلدا أبدا

حتى إلى خروج الروح من صدرى

وظلُّ نفسه الجميلة محتفٌ أنوارا

متديّرا بالتساع[8] فضاء الجو كالقمرِ

فيصطحب مع الأقدمين مشتركا

متزيّنا ببهاء أشعة الحب للبشرِ

ويشاهد عيانا برج حظ بونابارته

وما خصه الله من العظمات والقدرِ

وبانتحاد مربع[9] وبهذا القدر مستغرب

يرجف البربر أعداء الله والبشرِ

فيحصل الخير وينجح أهل مشرقنا

ويعود النظام وترا[10] النفع قد صدرِ

فيا من قطن ببلدة الأحياء والقبطة

ونفسك هناك تحضى[11] داخل الخدرِ

جُد على بلحظ العين مترأفا

وانظر إلى بأسنى برقة البصرِ

فانظر إلى شعبنا وشقاء حالته

فغدت حياتنا لا تخلو من الكدرِ

لاحظ المصريين وكيف كانوا قديما

وعبيدا غدوا الآن للرق واليسر[12]

فكم كنت تعجب أنت من مفاخرهم

وتيبايس القديمة يعلق ذكرها الخبرِ

فمنك نرجوا الشفاعة يامعضد الأولْ

فلا تدع مصرنا تسابق الشهرِ

ومن بعد حكم الفرنسيس أعواما

فلا تسيبْها لحاكم يسوس بالقسرِ

وإذا خُليت بصلح عام منتقلة

من يد ليد حاكم متعجرف ومفترِ

فمنك نطلب العون ياداسّه بأجمعنا

واسمك بباريس حمانا ياشائع الذكرِ

فبنا اعتنى لدِوامنا بناحية قبلى

لننجوا بحياتنا من الموت والحسرِ

فتنقذ بنيك من كل نائبة

فإنهم بأعدائهم فى أعظم الخطرِ

والآن غضبهم تفاقم ضد أمتنا

ولحبنا الفرنسيس قصدهم نسكن القبرِ

ومحبتنا للفرنسيس فلا بد عنها

لأنهم اعتقونا من الأضرار والشرِّ

ثم انتهى مقالى إليك ياربى

تجزى لداسّه أعماله بالخير والأجرِ

هوامش

---

(١) انظر شكل (٣) . وقد جاء فى الترجمة الفرنسية المصاحبة للنص العربى أن القصيدة موجهة إلى وزير الحربية الفرنسية .

(٢) جمع « دامس » أى الخفى المستتر . وقد يكون معنى العبارة : « اللغات غير المعروفة » .

(٣) الشديد الظلمة (٤) النثر

(٥) صيغة خاطئة لجمع « رقبة » ، والصحيح « رقاب » أو « رقب » .

(٦) مدينة طيبة القديمة (الأقصر) .

(٧) يقصد معركة مارنجو بايطاليا التى قتل ديسيه فى نهايتها عام ١٨٠٠ .

(٨) يقصد : مستديرا باتساع ....

(٩) عبارة غير مفهومة والشطر كله غير واضح المعنى .

(١٠) ترى (١١) تحظى (١٢) يقصد : الأسر

ملحق رقم (٢)

النص الكامل لمنشور بونابرت الأول إلى المصريين[١]

بسم الله الرحمن الرحيم لا إله إلا الله
لا ولد له ولا شريك فى ملكه

من طرف الجمهور الفرانساوى[٢] المبنى على أساس الحرية والتسوية[٣] السر عسكر[٤] الكبير بونابرته أمير الجيوش الفرانساوية يعرّف أهالى مصر جميعهم أن من زمان مديد السناجق الذين يتسلطنوا فى البلاد المصرية يتعاملوا بالذّل والاحتقار فى حقّ الملّة الفرانساوية ويظلموا تجّارها بأنواع البلص[٥] والتعدّى فحضر الآن ساعة عقوبتهم .

وحسرتا من مدة عصور طويلة هذه الزمرة المماليك المجلوبين من جبال الأبازا والكرجستان[٦] يفسدوا فى الإقليم الأحسن الذى يوجد فى كرة الأرض كلها فأما رب العالمين القادر على كل شى قد حتم على انقضا دولتهم .

يأيها المصريين قد يقولوا لكم إننى ما نزلت فى هذا الطرف

إلا بقصد إزالة دينكم فذلك كذب صريح فلا تصدّقوه وقولوا للمفترين إننى ما قدمت إليكم الا لكيما أخلّص حقكم من يد الظالمين وإننى أكثر من المماليك أعبد الله سبحانه وتعالى وأحترم نبيه محمّد والقرآن العظيم[٧] .

وقولوا أيضا لهم إن جميع الناس متساويين عند الله وإن الشى الذى يفرّقهم من بعضهم بعضا فهو العقل والفضايل والعلوم فقط وبين المماليك ما العقل والفضايل والمعرفة التى تميّزهم عن الآخرين وتستوجب أنهم يتملكوا وحدهم كلما يحلوا به حيات الدنيا[٨] .

حينما يوجد أرض مخصبة فهى مختصّة للمماليك والجوارى الأجمل والخيل الأحسن والمساكن الأشهى فهذا كله لهم خاصاً .

إن كانت الأرض المصرية التزام للمماليك فليورّون الحجّت[٩] التى كتبها لهم الله فلكن رب العالمين هو رؤوفا وعادل على البشر بعونه تعالى من اليوم فصاعدا لا يستثنى أحدا من أهالى مصر عن الدخول فى المناصب السامية وعن اكتساب المراتب العالية فالعقلا والفضلا والعلما بينهم سيدبروا الأمور[١٠] وبذلك يصلح حال الأمة كلها .

سابقا فى الأراضى المصرية كانت المدن المعظمة والخليجات الواسعة والمتجر المتكاثر وما أزال ذلك كله إلا الطمع وظلم المماليك .

أيها القضات والمشايخ والأيمة (الائمة) ويأيها الشوربا جية[١١] وأعيان البلد قولوا لأمتكم إن الفرانساوية هم أيضا مسلمين خالصين[١٢] وإثباتا لذلك قد نزلوا فى رومية الكبرا وخربوا فيها كرسى البابا الذى كان يحث دايما النصارا على محاربة الإسلام ثم قصدوا جزيرة مالطه وطردوا منها الكوالليرية[١٣] الذين كانوا يزعموا أن الله تعالى يطلب منهم مقاتلة المسلمين ومع ذلك الفرانساوية فى كل وقت من الأوقات صاروا المحبين الأخلصين لحضرة السلطان العثمانى وأعدا أعدايه[١٤] أدام الله ملكه

وبالمقلوب[١٥] المماليك امتنعوا من إطاعة السلطان غير ممتثلين لأ مره فما طاعوا أصلا إلا لطمع أنفسهم ٭

طوبى ثم الطوبى لأهالى مصر الذين يتفقوا معنا بلا تأخير فيصلح حالهم ويعلى مراتبهم طوبى أيضا للذين يقعدوا فى مساكنهم غير مايلين لأحد من الفريقين المحاربين فإذا يعرفونا بالأكثر يتسارعوا إلينا بكل قلب ٭

لكن الويل ثم الويل للذين يتحدوا مع المماليك ويساعدوهم فى الحرب علينا فلا يجدوا طريق الخلاص ولا يبقى منهم أثر ٭

٭ المادة الاولى ٭

جميع القرى الواقعة فى دايرة قريبة بثلثة ساعات عن المواضع التى يمّر بها العسكر الفرانساوى فواجب عليها أنها ترسل للسر عسكر بعض وكلا من عندها لكيما يعرفوا المشار اليه أنهم طاعوا وأنهم نصبوا السنجاق الفرانساوى[١٦] الذى هو أبيض وكحلى وأحمر ٭

٭ المادة الثانية ٭

كل قرية التى تقوم على العسكر الفرانساوى تنحرق بالنار ٭

٭ المادة الثالثة ٭

كل قرية التى تطيع العسكر الفرانساوى الواجب عليها نصب السنجاق الفرانساوى وأيضا نصب سنجاق السلطان العثمانلى محبنا دام بقاه ٭

٭ المادة الرابعة ٭

المشايخ فى كل بلد ليختموا حالا جميع الارزاق[١٧] والبيوت والأملاك تباع المماليك وعليهم الاجتهاد الزايد لكيلا يضيع أدنا شئ[١٨] منها ٭

٭ المادة الخامسة ٭

الواجب على المشايخ والقضات والأيمة أنهم يلازموا وظايفهم وعلى كل واحد من أهالى البلد أنه يبقى فى مسكنه مطمائن وكذلك تكون الصلات قايمة فى الجوامع على العادة والمصريين بأجمعهم ليشكروا فضل الله سبحانه وتعالى من انقراض دولت المماليك قايلين بصوت عالى أدام الله إجلال السلطان العثمانلى أدام الله إجلال العسكر الفرانساوى لعن الله المماليك وأصلح حال الأمة المصرية ٭

تحريرا بمعسكر اسكندرية فى ١٣ من شهر مسيدور سنة ٦ من إقامة الجمهور الفرانساوى يعنى فى أواخر شهر محرم سنة ١٢١٣ هجرية[١٩]٭

هوامش

(١) انظر شكل (٥) .

(٢) يقصد : الجمهورية الفرنسية (٣) أى ، على مبدأى الحرية والمساواة .

(٤) قد تكتب أيضا « سارى عسكر » أو « صارى عسكر » ، ومعناها القائد العام .

(٥) بنصة يقال : بلَصه وبلَّصه من المال ، أى لم يترك له شيئا .

(٦) الأبازا (أو الأبازه) من شعوب القوقاز ، والكرجستان هى جورجيا . وفى الأصل الفرنسى «achetés dans la Georgie et le caucase»

(٧) فى الأصل الفرنسى « وإننى أحترم الله ورسوله والقرآن أكثر من المماليك » : Je respecte, plus que les mameluks, Dieu, son Prophèt et Al Coran.

(٨) أى : كل ما تحلو به الحياة الدنيا .

(٩) أى : فليظهروا الحجة .

(١٠) العبارة فى الأصل الفرنسى أكثر تحديدا فهى تقول «Gouverneront» أى « سيتولون الحكم » .

(١١) نعنى هنا كبار الأعيان . وكانت هذه الكلمة التركية تطلق كذلك فى الاصطلاح المتخصص

على الضباط حاملي رتبة « جوربجى » ، وهي تعادل رتبة « النقيب » الحالية .

(١٢) في الأصل الفرنسي « أصدقاء للمسلمين الصادقين » : amis des vrais musulmans

(١٣) المقصود فرسان القديس يوحنا الأورشليمي ، وهم طائفة دينية تكونت في مدينة القدس في أعقاب الحرب الصليبية الأولى (أوائل القرن الثاني عشر)،وبعد عدة أحداث استقروا في جزيرة مالطة . وقد اتخذت حكومة الثورة الفرنسية عدة إجراءات ضد أتباع هذه الطائفة وأملاكها . ثم قررت حكومة الإدارة (الديركتوار) احتلال جزيرة مالطة نفسها بواسطة الحملة الفرنسية بقيادة بونابرت ، وهي في الطريق إلى مصر.انظر ص٥٥

(١٤) أي : وأعداء أعدائه

(١٥) أي : وعلى العكس من ذلك

(١٦) أي : العلم الفرنسي

(١٧) جمع « رِزْقة » ومعناها : أرض أو غيرها مما يُغل ، يصرف ريعها على أوجه معينة .

(١٨) أي : أدق شيء

(١٩) يوافق هذا التاريخ أول يوليو عام ١٧٩٨ م ، و ١٧ محرم عام ١٢١٣ هـ .

ملحق رقم (٣)

نص رسالة مراد بك الى الجنرال منو[1]

صور[2]...

جواب من حضرة أمير اللواء مراد بك أمير الحاج سابقا خطاباً الى حضرة سارى عسكر عبد الله منو أمير الجيوش الفرنساوية مضمونه

إن سألتم عننا فإنا طيبين بخير ولم نسأل إلا عنكم وغير ذلك ان حضر لنا جوابكم وعرفتونا بما حصل الى حضرة محبنا العزيز صارى عسكر كليبر وهذا أمر الله تعالى لم أحداً بيده حيلة وأمر الله تعالى لابد عن نفاذه والذى سلط على قتله مثل واحد كبير زى ده لم هو شأن ....[3] ويبقا خاين وقليل المروة ولكن من قديم الزمان الخوانة لهم وكل احدا جزائه على الله تعالى وذكرتوا لنا فى جوابكم أن الجمهور[4] سلموا لكم كامل الأمر والحكم وحصل لنا غايت الفرح والسرور لأن سابق بلغنا عنكم الأخبار الطيبة وشكرانية عن حضرتكم والناس جميعا يمدحوكم بكل خير واحنا الآخرين حصل لنا فرح بذالك وزاد حبنا لطرفكم وانشا[5] الله تعالى يكون راحتنا على الله تعالى وعلى حضرتكم السعيدة وانا على المحبة والشروط على ما هو عليه حكم الأول وإنشا[6]

الله تعالى تزيد المحبة والتوفيق وقبل تاريخه أرسلنا لكم جواب بصحبة الأمير ابراهيم كتخدا تابعنا وعرفنا الأمير إبراهيم كتخدا يعرف حضرتكم عن راحتنا وحضرتكم تتحملونا وتقبلوا عذرنا فى سنة تاريخه لأن حاصل لنا تعب من قبل المعايش والأمر الى الله تعالى والى حضرتكم السعيدة وترسلوا لنا كامل أخباركم لأجل الطمأنينة عليكم والله تعالى يحفظكم .

فى ١٥ شهر صفر الخير سنة ١٢١٥[٧]

هوامش

(١) انظر شكل (٨) .

(٢) إشارة إلى أن المرسل بعث بصور من هذه الرسالة الى سائر جنرالات الحملة .

(٣) كلمة غير واضحة فى الأصل .

(٤) يقصد حكومة الجمهورية الفرنسية .

(٥ ، ٦) ان شاء .

(٧) يوافق ٨ يوليو ١٨٠٠

شكل (٨)

خطاب مراد بك إلى الجنرال منو يعزية فى مصرع كليبر ويؤكد ولاءه لسلطات الحملة

إنكان (إن كان) يظهر كلامنا هذا بخلاف الواقع ثم إن هذا أمر يدركه أيضا خادمكم الخاص حضرة الجنارال يعقوب ومع ذلك لأجل طبعه الوديع محتار كيف يتصرف فى مثل هذه الدعوه والله تعالى يحفظكم .

من عند توابعكم المباشرين

ملطى وأنطون[3]

هوامش

(١) انظر شكل (٩) . والعريضة مرفوعة إلى الجنرال منو — كما جاء فى الترجمة الفرنسية ، وإن كانت غير مؤرخة .

(٢) السجس : الكدر والتغير ، والمقصود الأفعال الرديئة .

(٣) كان ملطى من أكبر زعماء الأقباط أيام الحملة الفرنسية . وقد تولى فى عهد بونابرت رئاسة « محكمة القضايا » بالقاهرة ، وهى تجمع بين اختصاصات المحكمة المدنية التجارية وإدارة الشهر العقارى وتتكون من اثنى عشر عضوا . وكذلك كان أنطون من كبار الأقباط وأكثرهم غنى وكان يعرف باسم « أبو طاقية » .

ملحق رقم (٤)

نص عريضة زعماء الأقباط إلى الجنرال منو[1]

حضرة صارى عسكر العام

ان جنابكم من قبل مافيكم من العدل والحلم والفطنه أرسلتم تسألونا بأن نوضح لكم ما نحن به من القهر فنحن قبل الآن لم نقصد كشف جراحنا التى كانت فى كل يوم تتسع شيأ فشيأ أولا تسليما للتقادير وعشماً بكون كل واحدا منا يرجع لذاته ويحاسب نفسه ثانيا خوفا من أن يقال عنا اننا نحب السجس[2] ونواخد (نؤاخذ) بذلك من الحكام ثالثا ليلا (لئلا) يتضح كأننا أخصام لأخواتنا وقاصدين الشكوى عليهم ولكن من حيث جنابكم أبو الجميع وطبيب الرعايا وقد زاد علينا الخال حتى ظهرنا من جملت العصاه على أوامركم وقد قاصصتمونا لذلك فاقتضى الحال أن نستغيث بكرسيكم تعيّنوا بأمركم أناسا من أهل الفطنه خاليين الغرض ممن ترونهم أنتم يقعدوا فى ما بيننا ويتبصروا فى حال حسابنا وفى النهاية بعد ان يردوا الجواب لجنابكم لكم التبصر فى ما تأمرون به ومع ذلك فنرجوكم بأن لا تظنوا بكوننا قاصدين بعرضحالنا الشكوى على أحد ام قصاصه بل قصاصنا نحن يوجه خاص

أ ـ من قسم المحفوظات (الأرشيف) بوزارة الخارجية البريطانية

ملحق رقم (٥)

رسالة من القبطان جوزيف إدموندس قائد الفرقاطة پالاس
إلى فخامة الإيرل سانت فنسنت وزير البحرية البريطانية
على ظهر الفرقاطة پالاس
جزيرة مينورقا فى ٤ من اكتوبر ١٨٠١

سيدى اللورد

استبحت لنفسى أن أرفع إليكم مباشرة المذكرات المرفقة بكتابى هذا ، اعتقادا منى بأنه قد يكون من المفيد لحكومة بلادى أن تعلم أن بعض الأشخاص الذين يطلقون على أنفسهم « الوفد المصرى » موجودون الآن فى باريس .

لقد كان ممن استقل السفينة پالاس التى اتولى قيادتها من مصر رجل قبطى ذو سمعة طيبة ، وهو من زعماء طائفته وله بينها نفوذ كبير . وقد نصبه الفرنسيون قائدا على فيلق برتبة جنرال لكى يعاونهم .

أوليت هذا المنفى العاثر الحظ بعض الرعاية فأخذ يحدثنى فى شئون وطنه . وقد أعرب لى عن اعتقاده بأن أى نوع من الحكم لبلاده أفضل من حكم الترك (العثمانيين) لها ، وأنه انضم إلى الفرنسيين بدافع وطنى حتى يمكنه أن يخفف عن مواطنيه ما عانوه ، ولكن الفرنسيين خدعوهم

شكل (٩) عريضة زعماء الأقباط

فأصبح المصريون الآن يحتقرونهم كما كانوا يحتقرون الترك ، وأنه ما يزال يأمل فى خدمة بلاده عن طريق الحكومات الأوربية ، ويرى أن ارتحاله إلى فرنسا قد يمكنه من ذلك . وقال إن الفرنسيين جعلوه يعتقد أن دولتهم أقوى دول أوربا ، وأنه لم يكن يعرف إلا قليلا عن القوة البحرية الهائلة لبريطانيا ، ولكنه مع ذلك كان على يقين من أنه بغير موافقة بريطانيا فإن رغبته فى أن تتمتع بلاده بحكومة مستقلة لن يقدر لها أن تتحقق . وقد أبلغنى صديقه لاسكاريس الذى كان يترجم أقواله لى أن الجنرال المعلم يعقوب يرأس وفدا فوضه أعيان مصر لمفاوضة الدول الأوربية فى أمر استقلالها . وفى أثناء الرحلة مات الجنرال وقام ترجمانه بتحرير المذكرة المرفقة بكتابى هذا وهى مكونة من أجزاء تتضمن خلاصة لما دار بيننا من أحاديث ، إذ كان الجنرال قبل وفاته قد أعرب عن رغبته فى أن أبلغ فحوى هذه الأحاديث إلى القائد العام كى يبلغه بدوره إلى الحكومة البريطانية . وقد أكد لى السيد لاسكاريس أن الوفد ما زال قائما وأن أعضاءه مسافرون معنا على ظهر السفينة ولم أستطع أن أتبين هل لاسكاريس نفسه عضو فى هذا الوفد أو أنه لم يكن سوى سكرتير مترجم له . غير أنى اعتقد أنه رجل مغرق فى الخيال ، وأظن أن أصله يرجع إلى إقليم بيدمونت وأنه من فرسان جزيرة مالطة الذين تركوا الجزيرة مع جيش بونابرت . وقد تعهدت للمعلم يعقوب بألا أستعمل أو تستعمل الحكومة البريطانية مضمون أحاديثه فى أى وقت من الأوقات بما يمكن أن يعود عليهم بالضرر . ولما كان هذا الوفد ، الذى لا يمكننى أن أحدد مدى صلاحياته ، قد اتجه فى الغالب إلى باريس للإقامة بها ، فقد رأيت من الضرورى إبلاغكم رأسا بهذه المذكرات والمعلومات ، إذ قد يمضى بعض الوقت قبل أن تتاح لى فرصة إبلاغها أولا الى قائدى العام اللورد كيث . وأرجو ان تتفضلوا فتقروا مسلكى هذا .

ولى عظيم الشرف ياسيدى اللورد أن .....

ملحق رقم (٦)

مذكرات مرفوعة للقبطان جوزيف إدموندس لتذكيره مستقبلا بالنقاط الرئيسة لأحاديثنا السياسية على ظهر سفينته

— ١ —

إن الكتاب المرفقة به هذه المذكرات موجه إلى فخامة اللورد[1] . وهو يبدو للوهلة الأولى مجرد التماس بسيط يرجوه أن يهتم بنا نحن المصريين التعساء . ولكن من الضرورى فى الحقيقة أن ينظر إليه على أنه ملخص للأحاديث السياسية التى دارت بيننا على ظهر السفينة . ولما كان من عدم التبصر فى الوقت الحاضر عرض خطتنا بشكل أكثر تفصيلا ، فإن هذه المذكرات الموجزة المكتوبة على عجل يمكن أن تكون كافية لتذكيرك بأهم نقاط أحاديثنا . وعندما يحين الوقت الملائم لرفعك إياها مباشرة إلى حكومتك أو لإبلاغها لفخامة اللورد ، فإن المصريين ، لوثوقهم فى سجاياك الكريمة ، يتركون لحسن فطنتك أن تثير اهتمام فخامة اللورد بقضيتهم ، حتى يمكن أن يكون لنا سندا ، سواء بما سوف يكتبه إلى مجلس الوزراء البريطانى ، أو بما سوف يقوم به عند عودته إلى إنجلترا . وإننا لنؤكد أن فخامة اللورد سوف ينتصر بذلك لقضية فيها

نفع لبلاده ، وليس هناك ما يمكن أن يكون أسمى غاية لسعى لورد نبيل مثله .

– ٢ –

إذا افترضنا أن ما سوف يعرضه « الوفد المصرى لدى الحكومات الأوربية » ، باسم المصريين الذين فوضوه ، يبدو قليل الأهمية فى نظر تلك الحكومات ، فإنكم ياسيادة القبطان توافقوننا على الأقل على أن الدول الأوربية لن تفعل أمجد أو أكرم من أن تبدد بقرار سياسى بسيط ظلمات الجهل والهمجية التى تخيم على هذه البلاد الذائعة الصيت . لقد كانت هذه البلاد مهدا لاستنارتنا ولعلومنا وفنوننا . ومجمل القول أنها كانت المركز الأول للحضارة التى نقلها عنها اليونان ومنها وصلت إلينا . واذا كانت مصر بماضيها المزدهر العظيم لا تستطيع أن تثير فى دول أوربا شعور العرفان بصنيعها وما لها من فضل ، فهى تستطيع على الأقل أن تثير فيها شعور العطف عليها . فاذا ما تحقق ذلك وردوا إليها أمرها أمكنها أن ترضى كل الدول الطامعة فيها ، دون أن تهدد واحدة منها فى مصالحها .

– ٣ –

لن يمضى وقت طويل حتى تؤيد بريطانيا حل القضية المصرية على الأسس التالية .... وفى هذه الأثناء قد تتقدم الحكومة الفرنسية نفسها باقتراح ذلك ، وعندئذ ينبغى ألا تنسى الحكومة الإنجليزية أن ما يقترح إنما هو نتيجة جهود الوفد المصرى فى باريس ، ومن ثم فليس هناك ما يدعو إلى أن تنظر الحكومة الإنجليزية إلى ذلك بشىء من الريبة . وإذا ما تقدمت فرنسا بمثل هذا المشروع السياسى ، فإنها سوف تفعل ذلك على سبيل المجاملة ، لأن مصلحتها فى نجاح المشروع أقل من مصلحة بريطانيا . والذى لاشك فيه أن حكومة الجمهورية الفرنسية لا تزال راغبة فى امتلاك مصر مرة اخرى .

– ٤ –

توشك الامبراطورية العثمانية على الانهيار . ولذا فيهمّ الإنجليز قبل أن تقع الواقعة أن يلتمسوا لأنفسهم من الوسائل المؤكدة ما يكفل لهم الإفادة من ذلك الحدث عند وقوعه فيحققوا مصالحهم السياسية . واذا كان من المستحيل عليهم أن يستعمروا مصر – كما استحال ذلك من قبل على فرنسا – فيكفى أن تخضع مصر المستقلة لنفوذ بريطانيا صاحبة التفوق فى البحار المحيطة بها . ولاشك فى أن استقلال مصر سوف يحقق لها رخاءها ، ولكنها لن تكون إلا دولة زراعية غنية بحاصلاتها الوفيرة التى تنتجها تربتها الخصبة وبتجارتها التى تنفرد بها مع قلب افريقيا .

وهذه المزايا سوف تعود بالفائدة على بريطانيا التى يهمها – بحكم مركزها فى الهند – أن تتاجر مع مصر وما حولها .

– ٥ –

لقد كان مراد بك يقول – وربما كان على حق – إن كفار الغرب (هكذا كان يسمى الدول الأوربية) أصبحوا يعرفون مصر معرفة تامة ، وأن الكل يسعى للاستيلاء عليها ، مما سيجعل منها موضوعا دائما للخلاف فيما بينهم . وقد يقال إن بريطانيا لا حاجة بها إلى الاستيلاء على مصر إذ أن لها من سيادتها البحرية ما يجعلها تستأثر بتجارة مصر الخارجية ويضمن لها بالتالى أن يكون لها ما تريد من نفوذ فيها . ولكن ماذا سيكون من أمر هذا النفوذ إذا ما عادت فرنسا من جديد الخليفة الطبيعية للباب العالى ، وإذا ما عمل الباب العالى من ناحيته على إرضاء فرنسا أكثر من بريطانيا ؟ وكيف يكون الوضع إذا ما مضت الدولة العثمانية فى إجراءاتها فأغلقت مرافئها فى وجه الإنجليز ؟ ثم أليس من المحتمل كذلك أن يضغط الفرنسيون على حلفائهم ليتخذوا – برا – تدابير عدائية أكثر مع الإنجليز ، يمكن أن تقضى على تجارتهم فى بلاد

الشام وفى البحر الأحمر ؟

– ٦ –

إن مشاعر المصريين نحو الفرنسيين ترجع إلى أساليب هؤلاء فى الحكم فى أثناء احتلالهم لمصر . ولست فى حاجة إلى إعادة الكلام فى هذا الموضوع ، إذ أعتقد أنكم يمكن أن تستعيدوا بسهولة ما دار بيننا من حديث حوله . وعلى هذا فإن كل شىء ، بما فى ذلك مشاعر المصريين تجاه الفرنسيين وما يمكن أن يشعروا به تجاه الإنجليز كلما ازدادت معرفتهم لهم ، يثبت أن مصر المستقلة لن تكون إلا موالية لبريطانيا . ومن ثم فعلى بريطانيا أن تعمل على استقلال مصر . أو على الأقل أن تؤيد هذا الاستقلال بعد حدوثه . وذلك على ضوء ما هو متوقع من تطورات فى مستقبل الأيام .

– ٧ –

اذا فرضنا أن حكومات الدول الأوربية سمحت باستقلال مصر ، فكيف يحكم المصريون أنفسهم ؟ وكيف يدافعون عن استقلالهم ؟

أولا : لا يسمح المجال فى هذه المذكرات المحررة على عجل بالدخول فى تفصيلات مشروع الوفد المصرى لحكم البلاد . ويكفى الآن أن نلاحظ أن قيام حكم الاستقلال لن يكون نتيجة انقلاب مبعثه وعى أمة اصطرعت فيها مختلف الآراء الفلسفية ، ولكنه سيكون نتيجة تغيير جبرى تفرضه القوة القاهرة على قوم مسالمين جهلاء يكادون لا يعرفون سوى عاطفتين تحركان سلوكهم ، هما المصلحة والخوف . فإذا استطاعت الحكومة الجديدة أن تسبغ على حياة الناس شيئا من الرخاء وأن تعمل على زيادة دخولهم ، وهو أمر ليس بالعسير ، فمن المؤكد أنها ستنال تأييدهم بحماس . وكيف لا يكون الأمر كذلك وأى حكومة فى العالم أفضل من الاستبداد التركى . فلتكن الحكومة الجديدة إذاً عادلة

وحازمة ووطنية كما كانت حكومة شيخ العرب همام فى الصعيد التى رويت لك قصتها . ولاشك أنها عندئذ سوف تكون موضع الاحترام والطاعة والحب .

ثانيا : كيف يدافع المصريون عن استقلالهم ؟ وهل سيكون هذا الدفاع ضد دولة أوربية ؟ إن من غير المتوقع حدوث ذلك إلا بعد وقت طويل يكون قد تم فى خلاله تنظيم جيش وطنى قادر على رد الاعتداء . أما إذا كان الاعتداء من جانب الترك أو المماليك فنعتقد أن الدول الأوربية لن تسمح بحدوث ذلك . ومن جهة أخرى فإن المصريين يمكنهم أن يعتمدوا على قوات أجنبية تعمل لحسابهم يتراوح عددها بين ١٢٠٠٠ و ١٥٠٠٠ جندى يكفون تماما لصد الترك عند الصحراء ولسحق المماليك داخل مصر ، وتكون هذه القوات فى الوقت نفسه نواة الجيش الوطنى . ولما كان العثمانيون يفعلون أى شىء من أجل المال فمن الممكن بذله لهم لردهم عن مصر . ولقد كان المماليك يستعملون هذا السلاح كلما رأوا سحب السياسة تتلبد ضدهم فى القسطنطينية .

وينبغى ألا يفوتنا أن نذكر فى هذا الصدد أن المصريين منقسمون إلى عدة طوائف ، وأن هذا الانقسام من شأنه أن يساعد على دفع هذه الطوائف بعضها ببعض من أجل حفظ التوازن بينها . وللوفد المصرى صلات بهذه الطوائف جميعا دون انحياز لواحدة منها على الأخرى . وهذه الصلات قائمة فى الخفاء وستظل خافية تماما عن الحكومة التركية فى مصر . وهذه الحيطة أمر لابد منه تجاه حكم مستبد متربص بالناس ، ولن يتوانى عن البطش بالأخوة دعاة الاستقلال والفتك بهم عن آخرهم إذا استطاع أن يكشفهم . ولقد استطاع الذين هجروا مصر من هؤلاء الأخوة مع الجيش الفرنسى أن يتحدوا طغيان الترك ، ولكن الأمر ليس كذلك بالنسبة للأخوة الذين بقوا فى مصر ، فهؤلاء يعيشون تحت السيف والعصا ، ولا يملكون إلا إخفاء حقيقتهم والظهور بمظهر عبيد السلطان المخلصين .

- ٨ -

إن المصريين كافة ، والوفد المصرى لدى الدول الأوربية بوجه خاص ، سيبذلون كل مافى وسعهم من جهد ليحرروا أنفسهم بطريقة ما من النير الذى يثقل كاهل بلادهم التعسة . ولكن إذا خاب سعيهم وجاءت اتفاقيات الصلح العام بعكس ما يرغبون ، وشاء القدر أن يعود الترك إلى امتلاك هذه الأقاليم الجميلة الشهيرة وتعريضها بذلك لتجدد العدوان عليها ، فأقل ما يلتمسه المهاجرون المصريون من الدول المتعاقدة أن تكفل لهم من الضمانات ما يدرأ عنهم شر انتقام الترك إذا ما عادوا لوطنهم .

- ٩ -

بالرغم من أن الوفد المصرى لا يعمل إلا من أجل تحقيق مشروع سياسى فيه نفع لجميع الحكومات بما فى ذلك الحكومة التركية (وبالرغم مما يبدو من غرابة هذا القول فيمكننا البرهنة على صحته) ، فقد تعرض ظروف لابد فيها من المحافظة على أسرار المفاوضات . ولذلك فإننا نرفق بهذا « شفرة » يمكن استعمالها فى مراسلاتنا إذا اقتضى الأمر ذلك .

- ١٠ -

يرى الوفد المصرى حرصا منه على نجاح المفاوضات المزمعة ضرورة كتمان أمر ما فاتحناكم فيه من مقدمات لها ، وكذلك ما يمكن أن تبلغوه لفخامة اللورد ، عن فرنسا وعن أى طرف يستطيع عرقلتها . إن خطة الوفد أن يعمل فى أوربا على أن تكون فرنسا هى التى تبدأ بعرض المقترحات الأولى على بريطانيا ، وتكون بريطانيا عندئذ قد اقتنعت بما فى مشروع الاستقلال المقترح من مزايا فتؤيده . وبهذه الطريقة فإن الوفد المصرى لن يتعرض لأن يرى الحكومة الإنجليزية ترفض المشروع بمجرد علمها به بسبب العداء التقليدى بين الأمتين الإنجليزية

والفرنسية ، أو شكا منها فى وجود دسيسة ما من دسائس فرنسا .

- ١١ -

لكى تسهل مراسلتنا من فرنسا أو من غيرها يمكنك ياسيدى القبطان أن ترسل ما تريد الى السنيور الكونت انطون كاسيس (قسيس) المقيم فى تريستا ، وهو يقوم بتحويلها الى حيث يقيم الوفد ، على أن يوضح ذلك بوضع اسمى تحت اسمه على كل رسالة . أما الرسائل التى قد توجه الينا من إنجلترا ، فان وصولنا إلى باريس سوف يشيع أمره فتتيسر عندئذ معرفة أين نقيم ، وبهذا يمكن أن أتسلم رسائل حكومتكم بسهولة . ولكن تلزم الحيطة التامة فيما يتصل بهذه النقطة الأخيرة حتى لا تتسرب أية شكوك إلى الحكومة الفرنسية .

ظهر السفينة بلاس فى ٢١ سبتمبر ١٨٠١

هوامش

(١) يقصد الأميرال اللورد كيث ، إذ حسب أن إدموندس سوف يرفع الأمر له باعتباره رئيسه المباشر .

ب ـــ من قسم المحفوظات (الأرشيف) بوزارة الخارجية الفرنسية

ملحق رقم (٧)

من نمر افندى نيابة عن الوفد المصرى إلى القنصل الأول بونابرت

إلى القنصل الأول للجمهورية الفرنسية من الوفد المصرى الذى يكن له أعظم التقدير .

المحجر الصحى بمارسيليا فى أول فنديمير من السنة العاشرة للجمهورية (٢٣ سبتمبر ١٨٠١) ١٨ صفر ١٢١٦[(١)]

فى قديم الزمان ، إبان تلك العصور الموغلة فى القدم ، عندما كانت فرنسا فى حالة الفطرة تكسوها الثلوج والغابات ، كانت مصر متحضرة مزدهرة ينهل مشرعو الإغريق من معين علمها ومعرفتها . ثم دار الزمان دورته وشاء القدر أن يفد مصريو العصر الحاضر أحفاد رواد الحضارة فى الماضى إلى فرنسا وهى تنعم بحكمك الرشيد ، ليتعرفوا على نظم أمة يحبونها وليقفوا على ما استحدثته من وسائل لم تسبقها إليها أمة أخرى ، مكنتها ـــ وهى الجمهورية الناشئة ـــ من المحافظة على مكاسبها الحربية بما سنته من نظم سياسية جديدة ..... وكما أن سولون (Sol on)[(٢)] عند عودته لبلاده من مصر شرع للإغريق ما اقتبسه من النظم المصرية ، فان الوفد المصرى الذى فوضه المصريون الباقون على ولائهم لك سيشرع

لمصر ما ترضاه لها من نظم عندما يعود اليها من فرنسا .

إن هذا سوف يحدث يافخامة القنصل الأول إذا تفضلت ـــ من أجل مجدك ومن أجل المصلحة السياسية للجمهورية الفرنسية ـــ فمددت يد المساعدة للمصريين التعساء الذين وضعت عنهم من قبل أغلالهم التى عادوا ينوءون بها من جديد ، وتكرمت فأحسنت استقبال وكلائهم فى باريس . إننا نأمل أن يكون استقبالنا فى العاصمة الفرنسية بمثابة احتفاع شرقى يجدد لك ذكرى الفتح العظيم الذى افاء الله به عليك ثم ضاع منك . ولابد أنك ـــ ياسيدى القنصل الأول ـــ شديد الإحساس بألم ما فقدت ، ولكنك إذا عملت فى معاهدات الصلح على أن تكون مصر مستقلة فسوف تعوض خسارتك فيها مائة مرة . إن هذه هى أمانينا التى أخذنا على أنفسنا عهدا بالسعى إلى تحقيقها .

عن الوفد المصرى
وكيله
نمر افندى

حاشية : أغا الانكشارية[(٣)] وعضو الوفد الذى سبق أن عرفه فخامة القنصل الأول فى القاهرة يرجونى أن أذكرك بأنه لن ينسى ما غمرته به من عطف حينذاك .

هوامش

---

(١) صحة التاريخ الهجرى ـــ حسب الجداول التوفيقية ـــ هو ١٥ جمادى الأولى .

(٢) هو المشرع الأثينى المعروف (٦٤٠ ـ ٥٥٨ ق م) الذى وضع لبلاده عدة قوانين حررتها من قيود كثيرة .

(٣) هو عبد العال أغا الأنكشارية الذى سبق ذكر خروجه من مصر مع الجيش الفرنسى (انظر ص ٤٧)

ملحق رقم (٨)

من غر افندى إلى وزير الخارجية الفرنسية (تاليران)

(تاريخ الملحق السابق نفسه)

سيهبط إلى موانىء الجمهورية الفرنسية عدد كبير من المهاجرين الشرقيين الذين غادروا بلادهم مع قوات جيش الشرق التى تم جلاؤها عن مصر . والوفد المصرى ، بالرغم من أنه فقد رئيسه الجنرال يعقوب الذى قضى نحبه فى أثناء السفر،يعلن كل ما يشعر به من ولاء وتقدير للجمهورية الفرنسية،ويرى من الضرورى أن يلجأ إليك ياسعادة الوزير لتتفضل وتضعه هو وأولئك المهاجرين تحت رعايتك وتشملهم بكرمك وعنايتك .

لقد كان لويس الرابع عشر يعمل فى الظاهر على ضم كنيسة إثيوبيا إلى الكنيسة الرومانية (الكاثوليكية) ، ولكنه كان يسعى فى الحقيقة لمد نفوذه السياسى نحو أقاليم وسط أفريقيا الجذابة الغامضة . ومن ثم بذل عدة جهود لم يقدر لها النجاح لكى يتعلم فى فرنسا عدد من شباب القبط المصريين ، لأن بطريرك الأقباط هو نفسه رأس الكنيسة

الإثيوبية . وإذا كان الملك قد أخفق فى مسعاه ، فإن الجمهورية الفرنسية اليوم فى ظل حكم القنصل الأول استطاعت أن تحقق ما عجزت عن تحقيقه الملكيه المطلقة الاستبدادية .

وإن الوفد المصرى الذى ينوب عن الأمة المصرية ليجسد وحده كل ما يختلج فى نفوس الذين أنابوه عنهم من شعور بالمصلحة المشتركة ، وما يحتشد فى قلوبهم من أمان وما يملكون من فطنة وما يتمتعون به من نفوذ وثروة . وهو يعبر عما أجمعوا عليه مما يتمثل فى رغبتين : الأولى هى القضاء على القوة الغشوم التى عادت تستبد بهم من جديد ، والثانية هى وضع ثقتهم فى فرنسا ليقينهم أن مصلحة الجمهورية الفرنسية ذاتها تقتضى ألا تخيب أملهم . وبناء على ذلك فنحن نتقدم إلى سعادة الوزير باقتراح : لقد تكبدت فرنسا فى الشرق خسارة جسيمة ، فلم لاتتخذ من هذا الوفد وسيلة لتعويض ما خسرته ؟ إنك إذا تفضلت فدعوت الوفد إلى لقائك فى باريس قبل توقيع الاتفاق التمهيدى مع بريطانيا ، فإننا نستطيع أن نؤكد لك أن فرنسا سوف تحتفظ بنفوذها السياسى فى الشرق وتحميه مما قد يفقدها إياه زمنا طويلا نتيجة للجلاء عن مصر وما تطور إليه أمرها الآن ، ونتيجة لمؤامرات الدول التى تخشى بحق زيادة نفوذ فرنسا . بل نستطيع أكثر من ذلك أن نتأكد أن فرنسا ـ إذا أرادت ـــ يمكنها عن طريق الأمة المصرية التى ستكون موالية لها مد نفوذها نحو أواسط افريقيا . وهكذا يتحول تركككم مصر للإنجليز من نكبة إلى سبب لمجد القنصل الأول ومصدر رفاهية للأقاليم الفرنسية فى الجنوب .

ولا يرى الوفد المصرى فى الوقت الحالى داعيا للإطالة . فهو يستطيع فى جلسة واحدة فى باريس أن يوضح مقاصده بما لايستطيع فى عشرين مذكرة مكتوبة . ونحن العرب نقدر فى الحديث على التعبير عما نريد ، وإن كنا فى الكتابة قد لانستطيع أن نبلغ الغاية فى يسر . وبالإضافة إلى

هذا فنحن مدركون لما تفرضه علينا كثرة مشاغلك السياسية من ضرورة الإيجاز فى الرسائل . إننا نرجو التفضل بالرد على كتابنا هذا ، وأن تسمح لنا اذا تكرمت باستقبالنا فى باريس أن نقابلك بزينا الشرقى ، فالمسلمون منا بالذات ليس من اليسير عليهم تغيير زيهم ، ثم إن هذه الأزياء الشرقية قد تذكر فخامة القنصل الأول بفتوحه السابقة وترضى حب الاستطلاع لدى من لم يتبعوه للشرق .

إن الوفد المصرى يعلم تماما أن وقت القنصل الأول ، الذى يدبر بنفسه شئون الحكم حتى فى أدق جزئياتها وتنعم الدولة برعايته ، أثمن من أن ينفقه فى التندر بقراءة ما يرد إليه من الرسائل الخاصة . ولكننا نرجوه أن يقدر أن وفدنا ينفرد بطبيعة خاصة ، وأنه يصل إلى فرنسا فى ظروف معينة ، وأن كتابنا له المرفق بهذا له أهميته ، فيتفضل بتسلمه وينعم النظر فيه بحكمته العميقة .

مصادر البحث

أ ـ المراجع العربية

١ – جاك تاجر ، **حركة الترجمة بمصر خلال القرن التاسع عشر** ، القاهرة ، ١٩٤٥ .

٢ – رءوف حبيب ، **صور من تاريخ القبط** ، رسالة مار مينا الرابعة ، مطبوعات جمعية مار مينا العجايبي ، القاهرة ، ١٩٥٠ .

٣ – شفيق غربال ، **الجنرال يعقوب والفارس لاسكاريس ومشروع استقلال مصر فى سنة ١٨٠١** ، القاهرة ، ١٩٣٢ .

٤ – عبد الرحمن الجبرتى ، **عجائب الآثار فى التراجم والأخبار** ، ٤ أجزاء ، القاهرة ، ١٢٩٧ هـ .

٥ – لويس عوض ، **تاريخ الفكر المصرى الحديث** ، جزءان ، كتاب الهلال ، العددان ٢١٥ و ٢١٧ ، القاهرة ، ١٩٦٩ .

٦ – محمد فؤاد شكرى ، **الحملة الفرنسية وظهور محمد على** ، القاهرة ، بدون تاريخ .

٧ – يعقوب نخلة رفيلة ، **تاريخ الأمة القبطية** ، القاهرة ، ١٩٢٢ .

ب ـ المراجع غير العربية

1 - Douan George, **L'Egypte Independente.** Le Caire, 1924.

2 - Homsy, Gaston, **Le Général Jacob et L'Expédition de Bonaparte en Egypte,** Marseille, 1921.

3 - La Jonquière, C. De, **L'Expédition d' Egypte (1798-1801),** Paris, 1899-1907.

4 - Rigault, **Le générel Abdallah Menou et la Dernière Phase de L'Expédition d'Egypte** (1799-1801), Paris, 1911.

5 - Rousseau, M.F., **Kléber et Menou en Egypte depuis le Départ de Bonaporte,** Paris, 1900.

جـ ـ الوثـائق

١ – وثائق وزارة الخارجية البريطانية : تركيـا

٢ – وثائق وزارة الخارجية الفرنسية : **تركيا ، مراسلات**

٣ – وثائق وزارة الدفاع الفرنسية : جيش الشرق

فهرست